



كتابي 46

إميلى برونتى

مرتفعات ويذرنج

الجزء الثالث











الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! . . وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) .
أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ـ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ـ فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) ، وماتت به «اميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة برونتى تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، وإليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيراً «آن» .
وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الآخرين !
وبعد أربع سنوات ألحق الاب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها شارلوت فى رواية (جين أير) باسم «الووود» .

حلمى مراد



الجزء الثالث

مرتفعات ويذرنج

النص الكامل لقصة «إميلى برونتى»

ملخص الجزءين الأول والثانى

عندما توفى « ايرنشو » ـ صاحب دار « مرتفعات ويذرنج » ـ خلف وراءه ولدا متلافا ، هو « هندلى » ، وابنة عنيدة ، خشنة متمردة ، هى « كاثرين » ، و .. ولدا من اصل مجهول ، التقطه من رحلة له إلى (ليفربول) ، ويغلب على الظن انه غجرى ، هو « هيثكليف » ، وقد جمع العنف والخشونة بين كاثرين وهيثكليف ، ولكن « هندلى » حرص على التفرقة بينهما ، وعلى محاولة ترويض كاثرين وإذلال هيثكليف !.. ولم تلبث الفتاة أن تعرفت إلى « ادجار لينتون » ـ ابن صاحب الضيعة القريبة « الجرانج » ـ فبهرها منه جمال شكله ، ورقة طباعه ، ولم تلبث أن تزوجت منه بالرغم من أنها كانت تزدرى ضعفه ونعومته بالنسبة لغلظة « هيثكليف » وخشونته ..

ونقم هيثكليف عليها هذا الزواج ، كما حقد على أخيها إمعانه فى إذلاله ، فلم يلبث أن اختفى من (مرتفعات ويذرنج) ، ليظهر بعد سنوات وقد اصاب قسطا من الغنى جعل « هندلى » يستضيفه فى داره .. واستغل الخبيث تردى ابن ولى نعمته فى المقامرة ، وإدمانه الشراب ، فراح يعمل على تحطيمه ، وعلى إخضاعه لسلطانه ـ بفضل ما كان يقرضه من مال يقامر به ـ وعلى إفساد ابنه « هيرتون » عليه ، وتنشئته على ما نشأ هو عليه من خشونة ، وضراوة ، وجهل

هو أقرب إلى الأمية .. وفى الوقت ذاته ، راح هيثكليف يسعى لإرضاء حقده على غريمه الذى ظفر بكاثرين ـ « ادجار لينتون » ـ متوسلا بقوة تأثيره عليها .. وهكذا تسبب فى أزمة عصفت بما كان بين الزوجين من وئام .. ثم استغل الهوى الصبيانى الذى تملك أخت ادجار ـ « ايزابيلا » ـ نحوه فعمل على تنميته ، بغية مصاهرة غريمه الارستقراطى ، ورغبة فى أن يرث أملاكه بعده !.. وإذ اكتشفت كاثرين الأمر ، عنفت فى تأنيب هيثكليف ، وطرده « ادجار » .

واثار تدخل ادجار ثائرة كاثرين ، فتصنعت الإصابة بنوبة صرع . ثم جن جنونها إذ لم يأبه زوجها بها ، فاصابها نوع من الخبل والهذيان ، وعرضت نفسها للبرد القاسى ، فاصيبت بحمى عنيفة .. وفى غمرة المرض الفتاك ، ولوعة ادجار على زوجته ، أغرى هيثكليف « ايزابيلا » بالفرار معه ، وتزوجها ـ من غير حب ـ ثم عاد بها إلى مرتفعات ويذرنج ، حيث راح يسومها العذاب ، إمعانا فى الانتقام من أخيها !

ولم يكتف الوغد بذلك ، بل حرص على أن يتسلل إلى (الجرانج) ، وأن يلقى كاثرين ، يتنازعه الحب لها ، والحقد عليها لأنها احتقرته وتزوجت غريمه الغنى .. وعلى أثر مشهد عنيف بينهما أثناء مرضها ، أغمى على كاثرين !.. وفى المساء ذاته ، وضعت طفلة ، حملت نفس اسمها « كاثرين » ، ثم ماتت !.. وكانت الصدمة قاسية على « ادجار » فاعتزل الناس أجمعين ، وكرس حياته لطفلته .. ولم تزد هذه

الصدمة هيثكليف إلا إمعانا فى حقده عليه ، وفى بطشه بإيزابيلا حتى اضطرت المسكينة إلى الفرار منه إلى ركن مغمور من لندن ، حيث وضعت طفلا اسمته « لينتون » ..

ثم مات « هندلى » من تأثير إفراطه فى الخمر ، فاستولى الوغد الوضيع على مرتفعات ويذرنج ، وعلى « هيرتون » ـ ابن غريمه ـ لينشئه جلفا ، فظا ، عنيفا مثله ..

وكانت « كاترين » الصغيرة قد كبرت ، فى رعاية أبيها ومربيتها مسز « ايلين دين » ـ راوية القصة ـ دون ان ترى العالم خارج أسوار دارها ـ « الجرانج » إلا فى صحبة أبيها .. وعندما بلغت الثالثة عشرة ، تلقى أبوها من أخته « إيزابيلا » رسالة تستحلفه فيها أن يخف إلى جوارها وهى تحتضر ، فسافر .. وفى غيابه ، شقت « كاثى » عصا الطاعة على مربيتها ، وانطلقت إلى جوادها على غير هدى ، فإذا القدر يسوقها إلى (المرتفعات) ، حيث أبدى لها هيثكليف تلطفا جعلها تخدع فى حقيقته .. وحيث استهجنت هوان حال « هيرتون » وفظاظته ، دون أن تدرى انه ابن خالها !

واقبل « لينتون » مع خاله ـ الذى اعتزم ان يكفله ـ فإذا به ضعيف ، هياب ، حائر ، كثير البكاء .. على أنه كان جميلا برغم ذلك ، وقد اجتذب « كاثى » بحاله هذه . ولكن اباه « هيثكليف » لم يكد يعلم بوصوله ، حتى أصر على انه

اولى بكفالته ، واستطاع أن يأخذه من خاله .. وكأنما كان هذا طمعا لاستدراج « كاثى » إلى مرتفعات ويذرنج ، ولتحويل عطفها على الفتى إلى حب .. فلما فطنت المربية ، حالت بين الفتاة وبين مراسلة « لينتون » أو زيارة مرتفعات ويذرنج . وساعدها على ذلك أن « ادجار » كان قد اصيب بمرض خطير ، يخشى منه عليه إذا هو عرف الأمر .

ولكن هيثكليف فاجأ الفتاة يوما ـ وهى مع مربيتها خارج الدار ـ وانبأها بأن حزن « لينتون » لانقطاع صلته بها قد اسلمه إلى مرض يوشك أن يقضى عليه .. وهدد ، وانذر .. ثم قال انه سيغيب عن داره اسبوعا ، وفى وسع الفتاة ان تتأكد خلال ذلك من صدق قوله ..

وفى الصباح التالى ، انطلقت الفتاة مع مربيتها إلى مرتفعات ويذرنج ، لترى ما إذا كان لينتون مريضا حقا !

والآن تستطيع أن تستأنف القصة :

* * *

الفصل الثالث والعشرون

أسفرت الليلة المطيرة عن صباح تحجب ضياءه غلالة من الضباب الرطيب ، كان بعضـــه من ندف الثلج الســابحة فى الهواء ، وبعضه الآخر من رذاذ خفيف من قطرات المطر المعلقة فى الفضاء .. وكانت جداول المــاء تنساب من أعلى التلال ، فى قرقرة خافتة ، فتقطع طريقنا بين وقت وآخر .. وأصاب البلل قدمى ، فزاد من حنقى وضيق صدرى ، وجعلنى فى تلك الحالة من السخط التى تلازمنا عندما نقدم على صنع شىء لا تهش له نفوسنا ..

وجعلت دخولنا إلى « المرتفعات » عن طريق المطبخ ، حتى استوثق من غياب مستر هيثكليف حقا ، إذ كنت قليلة الثقة بما يقوله ويؤكده !.. ووجدت جوزيف ، وقد بدا كأنه ينعم وحده بجنة لا يشاركه فيها أحد ، جالسا بجوار موقد احتدم أواره ، وعلى المــائدة القريبة منـــه قدح مثل الدلو ملىء بالجعة ، رصت حوله قطع كبيرة من فطير الشوفان المقدد ، وقد وضع غليونه الأسود القصير فى ركن فمه .. وهرعت كاثرين إلى الموقد تستدفىء بناره المستعرة ، بينما كنت أسأله إن كان الســيد داخل الدار .. ولقد ظل سؤالى بلا جواب فترة طويلة ، حتى خلت أن العجوز قد أصابه الصمم ، فأعدت عليه السؤال بصوت أشد ارتفاعا ..

فانبعث يزمجر ، أو بالأحرى أنه كان يصرخ من أنفه :

ـ كلا .. كلا .. وما عليكما إلا أن تعودا من حيث أتيتما !

وكدت أهم بالرد عليه عندما صاح صوت حانق من الحجرة الداخلية :

ـ جوزيف !.. كم مرة ينبغى لى أن أناديك ؟.. لم يبق فى المدفأة إلا جمرات قليلة يكسوها الرماد الآن .. جوزيف ! .. تعال فى الحال !

ولكن أنفاس الغليون القوية المتلاحقـــة ، وتلك النظـرة الساهمة نحو الموقد ، كانت تنبىء بأنه لا يعير هذا النداء أذنا صــاغية .. وكانت مدبرة المنـــزل وهيرتون مختفيين عن الأنظار ، ولعل الأولى خرجت فى جولة لتبتضع ، وانصرف الثانى إلى عمله فى الحقول .. وعرفنا صوت لينتون ، فدخلنا إليه .. وكان عندما سمع وقع خطانا ، قد حسبنا خادمه الذى يهمله ولا يعنى به ، فصاح قائلا :

ـ آه !.. كم أتمنى أن تهلك جوعا فى سجن سحيق !

فلما تبين خطأه ، سكت فجاة ، بينما اندفعت بنت خاله نحوه كالطير الحبيس يطلق من عقاله .. فرفع رأســه عن مسند المقعد الكبير الذى كان مضطجعا فيه ، وقال :

ـ أهذه أنت يا مس لينتون ؟.. كلا .. كلا .. لا تقبلينى ، فإن ذلك يقطع أنفاسى ويجعلنى ألهث كالمخنوق !

فلما أفاق قليلا مما غشيه من عناق كاثرين ، التى وقفت جانبا وقد بدت عليها خيبة الأمل ، استطرد يقول :

ـ يا إلهى !.. لقد قال لى أبى أنك قد تحضرين لزيارتى ، وها قد صح حدسه .. هل لك أن تتكرمى بإغلاق الباب ؟..

لقد تركته مفتوحا وراءك ، كما أن هؤلاء .. هؤلاء المناكيد لا يريدون إحضار الفحم للمدفأة !.. آه !.. ما اشد البرد الآن !

فأخذت احرك الرماد واحضرت بنفسى ملء دلو من فحم غذيت به النار .. فراح العليل يشكو ويتذمر من تطاير بعض الرماد عليه ، ولكنه لم يلبث ان فاجأته نوبة من السعال الاليم اسكتته .. وكان يبدو سقيما محموما مما جعلنى اغضى عن سوء خلقه ..

فلما انتهى سعاله ، وانفرجت اساريره ، غمغمت كاثرين قائلة :

ـ حسنا يا لينتون .. هل سرتك رؤيتى ؟.. وهل بوسعى ان اكون ذات نفع لك ؟

ـ لماذا لم تحضرى قبل الآن ؟.. كان الاولى بك ان تاتى بنفسك بدلا من الكتابة لى ، فان تلك الخطابات الطويلة ارهقتنى إرهاقا مروعا !.. وكنت افضل لو تحدثت إليك بدلا من تدبيجها .. اما الآن فلم اعد احتمل الكلام ولا اى شيء آخر !.. ترى اين زيللا ؟

ثم التفت نحوى ، واستطرد يقول :

ـ هل لك أن تذهبى إلى المطبخ لترى اين هى ؟

ولم اكن قد تلقيت منه لفتة أو كلمة شكر على خدمتى الاخرى بتزويد المدفاة بالفحم ، وإذ كنت غير راغبة فى الذهاب إلى هنا وإلى هناك تنفيذا لمشيئته ، فقد اكتفيت بأن اجبته :
« ما من احد هناك سوى جوزيف »

فأشاح بوجهه عنى ، وهو يقول فى ضيق وتبرم :

ـ أريد جرعة من الماء .. وقد اعتادت زيللا أن تهيم على وجهها إلى جيمرتون منذ أن غاب ابى ، وتركنى أعانى هذا الشقاء .. لقد اضطررت إلى النزول إلى هنا ، فقد اصروا على تجاهل ندائى كلما بقيت فى الطابق العلوى ..

وإذ رايت كاثرين قد صدت فى محاولاتها الودية للتقرب إليه ، سالته :

ـ هل تجد من ابيك رعاية كافية يا سيد لينتون ؟

ـ رعاية كافية ؟.. انه على الاقل ، يجعل الآخرين يولوننى شيئا من الرعاية فى حضوره .. ولكن يا لهم من أوغاد اشقياء !.. هل تعرفين يا مس لينتون ان ذلك الوحش هيرتون يضحك منى ساخرا ؟.. إننى اكرهه .. بل إننى فى الواقع اكرههم جميعا .. فإنهم ثلة من المخلوقات البغيضة الممقوتة !

وبدأت كاثى تبحث فى الحجرة عن بعض الماء لتسقيه ، حتى عثرت على ابريق فوق الخوان ، فملأت منه كوبا واحضرتها إليه .. ولكنه طلب إليها ان تضيف إليه ملء ملعقة من النبيذ من زجاجة موضوعة فوق المائدة .. ثم جرع رشفة صغيرة ، بدأ بعدها اشد راحة واكثر هدوءا ، وقال انها رحيمة رقيقة الشعور ..

وسرها أن تلمح على شفتيه إشراق فجر ابتسامة ، فعادت تكرر سؤالها الأول :

ـ وهل انت مسرور لرؤيتى ؟

ـ نعم .. اننى كذلك حقا .. فان سماع صوت كصوتك امر جديد على .. ولكن امتناعك عن الحضور سبب لى كثيرا من اللوم والإيلام ، فقد اقسم ابى إننى المسئول عن ذلك ، وكان يصفنى بأننى «شىء تافه خائر النفس يدعو إلى الرثاء» ! .. ويقول انك تحتقريننى ، وانه لو كان فى محلى لكان قد اصبح الآن سيد « الجرانج » أكثر من أبيك .. ولكنك لا تحتقريننى ، اليس كذلك يا مس ..

فقاطعته سيدتى الصغيرة قائلة :

ـ بودى أن تقول كاثرين او كاتى .. انا أحتقرك ؟.. كلا .. كلا .. انك أحب الناس إلى نفسى بعد ابى وايلين !.. ومع ذلك فانى لا احب مستر هيثكليف ، ولن اجرؤ على الحضور إلى هنا بعد عودته .. فهل سيغيب اياما عديدة ؟

ـ لن يطول غيابه كثيرا .. ولكنه يكثر من الذهاب إلى البرارى منذ ان بدأ موسم الصيد ، وسيكون فى وسعك ان تقضى معى ساعة او اثنتين فى غيبته .. قولى انك ستفعلين ، واحسبنى لن اكون نكدا مشاكسا معك ، لانك لا تثيرين غضبى ، بل تبدين دائما راغبة فى مساعدتى .. هل ستحضرين ؟

فأجابت وهى تربت على شعره الطويل الناعم :

ـ نعم .. إذا استطعت فقط ان انال موافقة ابى .. عندئذ سوف اقضى نصف وقتى معك يا لينتون الجميل .. شد ما وددت لو انك كنت أخى !

فأجاب فى لهجة مرحة طروب :

ـ فى تلك الحالة سوف تحبيننى كما تحبين أباك .. ولكن ابى يقول انك سوف تحبيننى اكثر منه ومن اى إنسان فى العالم ، إذا ما كنت زوجتى .. لذلك افضل لو كنت زوجة لى !

فقالت فى رصانة :

ـ كلا .. لن احب احدا قط اكثر مما احب ابى !.. ثم ان الناس يكرهون زوجاتهم احيانا ، ولكنهم لا يكرهون إخوتهم واخواتهم .. ولو كنت اخى لاقمت معنا ، ولاحبك ابى وتعلق بك مثلما يحبنى ويتعلق بى ..

فانكر لينتون ان الناس يكرهون زوجاتهم قط ، ولكن كاثى عادت تؤكد انهم يفعلون ، وتدفقت الحكمة من فمها عندما ضربت مثلا لذلك كراهية ابيه نفسه لعمتها .. وحاولت أن اتدخل لاكبح زمام لسانها الطائش ، ولكنى لم أفلح فى ذاك حتى كانت قد اخرجت من جوفها كل ما تعرفه .. فصاح لينتون ، وقد استبد به الضيق ، يؤكد أن قصتها كاذبة ..

فقالت كاثرين فى صراحة اشبه بالقحة :

ـ لقد اخبرنى أبى بذلك .. وأبى لا يكذب قط ..

فصاح لينتون :

ـ إن أبى يزدرى أباك ويحتقره ، ويسميه المغفل الخسيس !

فردت عليه كاثرين :

ـ إن اباك رجل شرير ، وانت اشد شرا منه إذ تردد ما يقوله .. ولابد انه بلغ غاية الشر حتى دفع عمتى ايزابيلا إلى هجره كما فعلت !

ـ إنها لم تهجره .. فلا تعارضينى !

فصرخت سيدتى الصغيرة :

ـ بل هجرته فعلا ..

عندئذ قال لينتون :

ـ حسنا .. سوف اخبرك انت بشىء يهمك .. لقد كانت امك تكره اباك ، فما رايك ؟

فشهقت كاثرين ، وأخرسها الغضب عن النطق إلا بكلمة : « أوه !.. » فاستطرد يقول :

ـ وكانت تحب ابى !

فتلاحقت انفاسها وتورد وجهها بحمرة الغضب والانفعال ، ثم صاحت :

ـ ايها الكاذب الصغير ، إننى اكرهك الآن !

ولكن لينتون غاص فى مقعده ، وأسند رأسه إلى ظهر المقعد وراح يرمق غريمته فى الجدال ـ وكانت تقف خلفه ـ مستمتعا بما يبدو عليها من انفعال وغضب . وما لبث ان راح يكرر فى لهجة منغومة :

ـ كانت تحبه !.. كانت تحبه !

فتدخلت قائلة :

ـ صه يا سيد لينتون ! .. هذه ايضا رواية أبيك . فيما اظن ..

ـ إنها ليست روايته .. وعليك ان تمسكى لسانك !.. كانت تحبه !.. كانت تحبه يا كاثرين !.. كانت تحبه !.. كانت تحبه !

فطاش صواب كاثرين ، ودفعت المقعد دفعة قوية جعلت لينتون يهوى على أحد ذراعيه ، وما لبث أن أصابته نوبة من السعال الخانق وضعت حدا لزهوه وانتصاره .. ودامت النوبة طويلا حتى اقلقتنى ، اما ابنة خاله ، فقد راحت تبكى بكل قوتها ، وقد أذهلها ما أقدمت عليه من أذى ، ولو انها لم تقل شيئا تعتذر به عما اقترفته .. وأمسكت به بين ذراعى حتى زالت عنه نوبة السعال ، وعندئذ دفعنى بعيدا ، وأحنى رأسه فوق صدره حيث لبث صامتا بلا حراك .. وكفكفت كاثرين عبراتها ، هى الأخرى ، وجلست ناحية ، وهى تنظر إلى النار فى وجوم ..

وانقضت دقائق عشر على هذا النحو ، فقطعت الصمت الذى يرين فوقنا ، لأسأله :

ـ كيف حالك الآن يا سيد هيثكليف ؟

ـ ليتها تحس بما احس به ، هذه المخلوقة القاسية الحقود !.. ان هيرتون لا يمسنى بأصبعه قط ، ولم يضربنى مرة واحدة فى حياته .. ثم اننى كنت أحسن حالا اليوم ، وها هى ذى قد ..

واختنق صوته فى نشيج حار ، فلم يتم عبارته .. بينما أخذت كاثرين تعض شفتها حتى تحول دون انفجارها باكية من جديد ..

وظل يئن ويتوجع ، كشخص يعانى آلاما مروعة ، أكثر من ربع ساعة .. وكان من الجلى انه كان يفعل ذلك عن عمد ليزيد من كرب ابنة خاله وضيقها ، إذ كان كلما لمح عبرة تنساب من عينيها فى صمت ، زاد من أنغام الألم المتجددة فى صوته الباكى !

ونفد احتمالها أخيرا ، فما لبثت أن قالت :

ـ إننى آسفة لما ألحقته بك من أذى يا لينتون .. ولكنى ـ أنا ـ ما كنت لاتألم من مثل هذه الدفعة اليسيرة ، وما خطر ببالى أنها سوف تؤلمك .. ولكنها لم تؤذك كثيرا ، أليس كذلك يا لينتون ؟.. قل انك لم تتألم منها كثيرا ، ولا تدعنى أعود إلى منزلى وأنا أفكر فى أننى قد آذيتك .. أجب .. كلمنى !

ـ لا أستطيع ان اكلمك !.. لقد آذيتنى إلى درجة سوف تجعلنى اقضى الليل مسهدا مختنقا من هذا السعال اللعين .. ولو انك اصبت به لعرفت ما هو .. ولكنك سوف تستغرقين فى نوم هادىء مريح ، بينما أتألم وحدى ، وليس بقربى أحد.. ترى كيف تحبين أن تقضى هذه الليالى المروعة ، لو أصابك ما أصابنى ؟!

فقلت له :

ـ ما دمت قد اعتدت على قضاء هذه الليالى الفظيعة ،

فان الآنسة ليست هى التى تفسد راحتك ، ولن يتغير عليك شىء لو لم تكن قد حضرت .. ومهما يكن من أمر يا سيد لينتون ، فانها لن تزعجك مرة أخرى ، وأرجو لك المزيد من الراحة والهدوء بعد ذهابنا ..

ولكن كاثرين مالت فوقه وهى تسأله فى حزن وأسى :

ـ هل يجب ان أذهب ؟.. هل تريد ان أذهب يا لينتون ؟

فأجابها فى سخط :

ـ انك لا تستطيعين تغيير ما احدثته !.. إلا إذا زدته سوءا بمضايقاتك لى حتى تصيبينى بالحمى !

فرددت سؤالها من جديد : حسنا .. هل يجب أن أذهب إذن ؟

فقال وهو يرتد إلى الوراء نافرا :

ـ دعينى وحدى على الأقل ، فانى لا أطيق كلامك !

فتلكأت لحظة ، وهى تقاوم طويلا إلحاحى عليها بالانصراف .. فلما وجدته لا ينظر إليها ولا يكلمها ، بدأت تسير متمهلة نحو الباب ، وبدأت أسير فى أعقابها .. ولكن ردتنا عن المضى فى طريقنا صرخة مفاجئة ، فقد انزلق لينتون من مقعده وهوى إلى الأرض فوق البلاط المحيط بالمدفأة ، حيث راح يتلوى ، لا من الألم ، وإنما لمجرد المشاكسة المنبعثة من طفل عريق فى الشغب ، يعمل بكل ما فى وسعه على مضايقة الغير ومعاندته .. وقد استطعت ان اتبين حقيقة ميوله من مسلكه ، وادركت للتو ان من الجنون بذل أية محاولة للتسرية عنه او

تسليته وإدخال السرور على نفسه .. ولكن رفيقتي لم تكن على هذا الرأى ، فقد عادت إليه فى عجلة ولهفة وفزع ، وجثت على الارض بجانبه ، وهى تذرف الدمع السخين وتدلله وتهدىء من روعه ، حتى هدأ أخيرا بعد ان انقطعت انفاسه من كثرة الصراخ ، وليس من تأنيب ضميره لإزعاجه إياها !.. فتدخلت قائلة :

ــ سوف احمله إلى الأريكة ، حيث يمكنه أن يتلوى ويتقلب كيفما يروق له ، إذ ليس فى وسعنا أن نبقى لرعايته وحراسته .. وارجو يا مس كاثى ان تكونى قد اقتنعت الآن بأنك لست الشخص الذى يفيده وجوده ، وأن حالته الصحية ليس مرجعها إلى تعلقه بك .. ها قد وضعته فوق الأريكة ، فتعالى ننصرف !.. وما إن يدرك أن ليس هنا من يبالى بهرائه ، حتى يخلد إلى السكون راضيا مسرورا ..

ولكنها احضرت وسادة وضعتها تحت راسه ، وعرضت عليه بعض الماء ، غير انه رفض الماء وراح يتململ فوق الوسادة كأنها حجر او كتلة من الخشب ، فحاولت أن تجعلها اكثر راحة له ، ولكنه قال :

ــ انها لا تريحنى ، فهى ليست مرتفعة كما يجب ..

فأحضرت كاثرين وسادة أخرى وضعتها فوق الأولى .. ولكن ذلك المخلوق المثير غمغم قائلا :

ــ انها أعلى مما ينبغى !

فسألته فى يأس :



فقد انزلق لينتون من مقعده وهوى الى الأرض فوق البلاط المحيط بالمدفأة ..

ـ وكيف تريد أن أسويها إذن ؟

فدار حول نفسه حتى رفع راسه واتخذ له متكأ فوق كتف كاثرين التى كانت منحنية بجانب الاريكة .. فقلت :

ـ كلا .. ان هذا المسند لا يصلح لك يا سيد هيثكليف ، وعليك ان تقنع بالوسادة ، فقد أضاعت الآنسة عليك من وقتها ما فيه الكفاية حتى الآن ، ولن نستطيع البقاء خمس دقائق اخرى ..

فقاطعتنى كاثى قائلة :

ـ كلا .. كلا .. بل نستطيع البقاء !.. انه الآن طيب صبور ، وقد بدأ يفهم اننى كنت خليقة بأن احس بشقاء عظيم ، اكثر مما سوف يعانيه ، لو اعتقدت ان زيارتى له هى التى زادته سوءا ، واننى بذلك لن اجرؤ على معاودة الزيارة .. قل الحقيقة يا لينتون ، لأننى لن أحضر ثانية إذا كنت قد آذيتك !

فأجاب :

ـ بل يجب عليك أن تأتى ، لتساعدى على شفائى .. يجب ان تأتى لأنك آذيتنى ، وانت تعرفين إلى اى حد بلغ إيذاؤك هذا .. فلم اكن مريضا عند قدومك بالقدر الذى بلغته الآن ، اليس كذلك ؟

فقلت له :

ـ بل انت الذى أسأت إلى صحتك بإمعانك فى البكاء والصراخ والانفعال ..

وقالت ابنة خاله :

ـ إننى لم أفعل شيئا على الاطلاق !.. ولكننا ، على اية حال ، سوف نغدو أصدقاء الآن ، فهل تريدنى حقا ؟.. هل تود ان ترانى بين الحين والآخر ؟

فأجاب فى صبر نافد :

ـ قلت لك اننى أود ذلك !.. والآن تعالى اجلسى على الاريكة ، ودعينى أتوسد ركبتك .. فهكذا كانت تفعل أمى امسيات برمتها !.. اجلسى ساكنة ولا تتكلمى قط .. ولكن فى وسعك ان تغنى ، إذا كنت تعرفين الغناء .. أو لعلك تسمعيننى ملحمة طويلة مسلية ، من تلك الملاحم التى وعدت بان تعلمينى إياها ، أو تقصين على قصة جميلة .. ولكننى افضل الملحمة .. هيا .. ابدئى !

فأخذت كاثرين تنشد له أطول ملحمة استطاعت ان تتذكرها .. وطابت نفساهما لهذه المهمة . وطلب لينتون ملحمة غيرها ، ثم أخرى بعدها ، برغم اعتراضاتى المتكررة .. وظلا على هذه الحال حتى دقت الساعة الثانية عشرة ، وسمعنا صوت هيرتون فى الفناء وهو يعود لتناول الغداء ..

ونهضت كاثرين متكرهة ، فأمسك لينتون الشاب بطرف ردائها وهو يقول :

ـ الا تأتين إلى هنا فى الغد يا كاثرين ؟

فتوليت الإجابة ، وقلت :

ـ كلا .. لا فى الغد ولا بعده !

ويبدو أنها ، برغم ذلك ، قد طمأنته بإجابة مختلفة ، إذ رأيت وجهه يتهلل فرحا وهى تنحنى فوقه وتهمس فى أذنه..

فلما غادرنا المنزل ، بدأت أقول :

ـ إنك لن تحضرى غدا يا آنسة ، فاذكرى ذلك جيدا .. ولا أظنك تحلمين بشىء كهذا ، أليس كذلك ؟

ولكنها لم تزد على الابتسام ، فاستطردت قائلة :

ـ آه !.. سوف آخذ حذرى تماما .. سوف أصلح ذلك القفل ، ولن تجدى طريقا أخرى تهربين منها ..

فقهقهت مسرورة ، وقالت :

ـ سوف أتسلق السور !.. فإن « الجرانج » ليس سجنا يا إيلين ، وأنت لست سجانتى .. وفضلا عن ذلك فإنى أشرفت على السابعة عشرة ، وأصبحت امرأة !.. وإنى واثقة من شفاء لينتون سريعا ، إذا ما أتيح له أن أقوم على العناية به ورعايته .. ثم إننى ، كما تعرفين ، أكبر منه سنا ، وأكثر تعقلا ، وأقل تدللا وصغارا ، أليس كذلك ؟.. ولن يلبث حتى يستجيب لتوجيهاتى ، مع قليل من الملاينة والملاطفة من جانبى .. فإنه يغدو فتى جميلا رقيقا عندما يكون فى أطيب حالاته .. وسوف أجعل منه طفلى المدلل ، لو أصبح لى .. إننا لن نتشاجر قط بعد أن يعتاد أحدنا الآخر .. أليس كذلك ؟.. ألا تحبينه يا إيلين ؟

فصحت قائلة :

ـ أحبه ؟.. إنه أسوأ مضغة رأيتها تناضل الأسقام لتبلغ سن المراهقة ، خلقا وطباعا .. ومن حسن الحظ أنه لن يبلغ العشرين قط ، كما تكهن مستر هيثكليف .. بل إننى لأشك حقا فى بقائه حيا إلى الربيع القادم .. وما أقلها من خسارة سوف تصيب أسرته بموته عندما يحين أجله !.. لقد كان من حسن طالعنا أن أباه قد أخذه ، فلو بقى معنا لظل يزداد أنانية ونكدا ، كلما زدناه عطفا ورفقا !.. وكم يسرنى أنه لن تتاح لك أية فرصة لتتخذى منه زوجا لك يا مس كاثى !

فقطبت رفيقتى أساريرها فى وجوم وهى تسمع هذا الحديث .. فإن كلامى عن موته بهذه البساطة وقلة الاكتراث قد جرح شعورها .. ومالبثت أن قالت ، بعد فترة من التفكير والتأمل :

ـ إنه أصغر منى ، وهو بذلك خليق بأن يعيش أكثر منى .. وسوف يعيش !.. بل لابد أن يعمر مثلى على الأقل !.. وهو الآن من القوة بمثل ما كان عند قدومه إلى الشمال أول مرة .. إننى واثقة أن علته ليست إلا بردا خفيفا ، كالذى أصاب والدى .. وأنت تقولين إن أبى سوف يشفى قريبا ، فلماذا لا يشفى هو كذلك ؟

فصحت بها حانقة :

ـ حسنا .. حسنا .. لاحاجة بنا لأن نشغل نفسينا بهذا

الأمر .. فأصغى إلى يا آنسة ، وتدبرى قولى جيدا ، إذ اننى سوف احافظ على كلمتى .. انك إذا حاولت الذهاب إلى « مرتفعات ويذرنج » ثانية ، سواء معى أو بدونى ، فسوف اخبر مستر لينتون .. ومالم يسمح لك ، فان كل صلة بينك وبين ابن عمتك يجب الا تتجدد قط ..

فغمغمت كاثى فى تجهم :

ـ لقد تجددت فعلا ..

ـ إذن يجب الا تستمر ..

فكان جوابها : « سوف نرى ! » ، ثم اطلقت العنان لمهرها فانطلق يعدو بها ، تاركة إياى أسير مكدودة فى المؤخرة !

وبلغنا المنزل قبل موعد غدائنا .. وكان السيد قد حسبنا نقوم بجولة فى البستان ، فلم يسألنا تفسيرا لغيبتنا الطويلة ..

وما كدت ادخل المنزل حتى اسرعت أستبدل حذائى وجواربى المبللة ، ولكن بقائى بها مدة طويلة فى « المرتفعات » كان قد احدث اثره السيىء .. ففى صباح اليوم التالى لم استطع القيام ، ولزمت الفراش ثلاثة أسابيع كاملة عجزت خلالها عن الاضطلاع بواجباتى فى المنزل .. ولم أكن قد عانيت مثل هذا المرض قبل ذلك ، كما أننى ـ والحمد لله ـ لم أصب بمثله منذ ذلك الحين ..

وكان مسلك سيدتى الصغيرة أشبه بالملائكة ، وهى تاتى لخدمتى والعناية بى والترفيه عنى فى وحدتى .. وكان

اعتكافى هذه المدة محطما لروحى المعنوية إلى حد بعيد ، فليس اشد إيلاما ، لشخص اعتاد الحركة والنشاط ، من اضطراره إلى التزام السكون والجمود .. ولكن ذلك ، والحق يقال ، كان سببا تافها للتذمر والشكوى .. فان كاثرين كانت لا تكاد تغادر حجرة أبيها ، حتى تهرع إلى جوار فراشى .. كان يومها مقسما بيننا كلينا ، لاتقتطع منه لحظة لمتعتها الخاصة .. بل لقد أهملت وجبات طعامها ، ودروسها ، ولعبها .. كانت أشد الممرضات ولعا بواجباتها وتعلقا بها .. ولا ريب انها كانت تضم صدرها على قلب كبير ، استطاعت أن تهبنى منه الكثير ، مع حبها العظيم لأبيها .. وقد قلت إن أيامها كانت مقسمة بيننا ، ولكن السيد كان يعتكف مبكرا ، كما اننى لم اكن أحتاج لشىء عادة بعد الساعة السادسة .. وهكذا كانت الأمسيات ملكا خالصا لها .. يا للطفلة المسكينة !.. إننى ما فكرت قط فيما كانت تشغل به نفسها فى تلك الأمسيات بعد تناول الشاى .. ومع أننى لاحظت كثيرا ، عند ما كانت تاتى إلى حجرتى لتتمنى لى ليلة طيبة ، توردا نضيرا فى وجنتيها ، واحمرارا قانيا فى أصابعها النحيلة ، إلا أننى كنت اعزو ذلك إلى توهج النار فى المدفأة ، بدلا من أن أفكر فى احتمال حدوثه من رحلة على الجواد فى برد البرارى القارس !



الفصل الرابع والعشرون

فى ختام الأسابيع الثلاثة ، استطعت ان اغادر حجرتى وأتمشى فى انحاء المنزل .. فلما اتيح لى الجلوس فى المساء لأول مرة بعد مرضى ، رجوت كاثرين ان تقرا لى لان عينى كانتا كليلتين ، اضعفهما المرض .. وكنا جالستين فى المكتبة ، بعد أن أوى السيد إلى فراشه ، فخيل إلى ان رضى كاثرين كان مشوبا بشىء من التردد أو التكره ، وعزوت ذلك إلى أن كتبى من النوع الذى لاتروق لها مطالعته ، فطلبت اليها أن تتولى بنفسها اختيار ماتقرؤه ، فانتقت احد كتبها المفضلة ومضت تقرا لى زهاء ساعة كاملة ، ثم بدات بعد ذلك تقطع القراءة لتمطرنى بالأسئلة :

ـ الست متعبة يا ايلين ؟ .. اليس الأفضل ان تخلدى إلى فراشك الآن ؟ .. هل يعاودك المرض من طول السهر يا ايلين ؟

فكنت فى كل مرة اجيبها : كلا .. ياعزيزتى .. لست اشعر بأى تعب قط ..

فلما رأتنى لا اتحرك من مكانى ، لجات إلى محاولة أخرى تظهر بها نفورها من هذه المهمة ، فانقلب الأمر إلى التثاؤب والتمطى ، حتى ضاق ذرعها فقالت :

ـ لقد تعبت يا ايلين ..

ـ دعى القراءة إذن ، ولنتكلم سويا ..

ولكن ذلكَ كان لديها أسوأ من القراءة ، فراحت تتململ

وتتنهد ، وتنظر إلى ساعتها حتى بلغت الساعة الثامنة ، فنهضت لتذهب إلى حجرتها .. وحدست من نظراتها المتبرمة الثقيلة ، ومن فرك عينيها طويلا ، ان النعاس قد انهكها تماما ولم تعد تقوى على مغالبته .. وفى الليلة التالية كانت أضيق صدرا واكثر تبرما .. وفى الليلة الثالثة من ملازمتها لى شكت من صداع اصابها ، وتركتنى مبكرة .. وخيل لى ان مسلكها يبدو غريبا ، فلما طال مكثى وحيدة فترة طويلة ، رايت ان أذهب إليها لاستفسر منها إن كانت قد تحسنت ولأسألها ان تأتى لتضطجع على الاريكة بدلا من بقائها فى الظلام فى الطابق العلوى وحدها .. ولكنى لم اجد اثرا لكاثرين فى الطابق العلوى ولا فى غيره من أرجاء البيت .. واكد لى الخدم جميعا انهم لم يروها .. فرحت انصت مليا عند باب مستر لينتون ، ولكن الصمت كان يسود الحجرة فلم اسمع فيها صوتا او حسا .. واخيرا عدت إلى حجرتها ، واطفأت شمعتى ، وجلست أنتظر فى فراغ النافذة ..

كان القمر يغمر الحديقة بضيائه المتالق ، والارض قد اكتست بغلالة رقيقة من ندف الثلج المتساقطة ، فخطر لى أنها قد تكون فكرت فى القيام بجولة فى الحديقة تنعشها وتخفف من صداعها .. وما لبثت أن لمحت فجاة شبحا يسير فى حذر بجوار سياج الحديقة الداخلى ، حسبته بادىء الأمر سيدتى الصغيرة ، ولكنه ما إن برز إلى الضياء حتى تبينت فيه احد السياس .. وظل واقفا فترة طويلة يتطلع إلى طريق العربات الخارجى فى اهتمام ، وإذا به يندفع بغتة فى خطى

حثيثة ، كأنما اكتشف شيئا يرقبه ، ثم مالبث أن ظهر بعد قليل وهو يسحب وراءه مهر الآنسة ، وهى تسير إلى جانبه بعد أن ترجلت عنه فى التو واللحظة .. ومضى الرجل بوديعته فى حذر وتلصص نحو الاسطبل ، بينما تسللت كاثى إلى المنزل من نافذة مفتوحة فى حجرة الجلوس ، وتسلقت الدرج فى خفة وسكون إلى حيث كنت فى انتظارها فى الطابق العلوى !.. واغلقت باب الحجرة خلفها فى رفق ، ثم نزعت حذاءيها اللذين كساهما الثلج ، وخلعت قبعتها ، وشرعت تتقدم ، دون أن تحس بتجسسى عليها ، لتضع معطفها جانبا ، وعندئذ نهضت بغتة وبرزت من مكمنى !

وعقلت المفاجاة لسانها من الفزع لحظة ، وبدا ارتياعها فى الشهقة التى انبعثت منها ، وجمدت فى مكانها بلا حراك ..

وكنت شديدة التأثر بما بدا منها من رفق وعناية بى أثناء مرضى القريب ، فبدات اقول لها دون أن تنطوى كلماتى على شيء من التانيب أو اللوم ..

ـ إلى اين ذهبت على ظهر جوادك فى مثل هذه الساعة ياعزيزتى الآنسة كاثرين ؟ .. ولماذا حاولت خداعى باختلاق الاكاذيب ؟ .. أين كنت ؟ .. تكلمى !

فتعثرت الكلمات فى فمها وهى تقول :

ـ لقد ذهبت أتنزه عند نهاية البستان ! ولم أختلق أية اكاذيب !

ـ الم تذهبى إلى اى مكان آخر ؟ ..

فلم ترد على أن غمغمت قائلة : « كلا .. »

فقلت فى أسى وقد تهدج صوتى بالبكاء :

ـ أواه ياكاثرين !.. انت تعلمين أنك قد اتيت خطأ كبيرا، والا ما اندفعت إلى الكذب على .. وان ذلك ليحزننى كثيرا.. ولقد كان الأولى لى أن يدوم مرضى ثلاثة أشهر ، من ان أسمعك تختلقين الكذب عمدا ..

فاندفعت إلى الأمام ، وهى تنفجر باكية ، وأحاطت عنقى بذراعيها ، قائلة :

ـ حسنا يا ايلين .. لقد كنت أخشى أن تغضبى منى ، فعدينى الا تغضبى ، وسوف تعرفين الحقيقة بحذافيرها ، لأننى اكره إخفاءها عنك ..

فجلسنا على مقعد بجوار النافذة ، واكدت لها اننى لن أؤنبها مهما يكن سرها ، ولو اننى بالطبع كنت قد حدسته .. فبدات تقول :

ـ لقد كنت فى « مرتفعات ويذرنج » يا ايلين ، ولم اتخلف عن الذهاب إلى هناك يوما واحدا منذ مرضك ، إلا ثلاث مرات قبله ، ومرتين بعد أن شفيت وغادرت حجرتك .. كنت أمنح « مايكل » الكتب والصور ليعد لى « مينى » كل مساء ، وليعيده إلى الاسطبل بعد عودتى .. ولكن لا توجهى إليه لوما أو تأنيبا هو الآخر .. وكنت أصل إلى المرتفعات فى السادسة والنصف ، واظل بها عادة حتى الثامنة ، فأعود مسرعة اركض بجوادى ركضا .. ولم يكن ذهابى إلى هناك بحثا عن التسلية والترفيه لنفسى ، بل لقد كنت كثيرا ما اقضى وقتى هناك

مهمومة مكروبة !.. كنت لا أحس بالسعادة إلا بين الحين والحين ، لعلها لم تكن تعدو مرة فى الأسبوع !.. وفى بادىء الأمر ، كنت أتوقع أن ألقى عناء شديدا فى إقناعك بالسماح لى بالوفاء بوعدى للينتون ، إذ كنت قد وعدته ، عند انصرافنا، بزيارته فى اليوم التالى .. ولكنى نجوت من هذا العناء عندما لزمت فراشك فى الطابق العلوى فى الغداة .. وبينما كان مايكل يثبت قفل باب الحديقة بعد إصلاحه ، عصر ذلك اليوم ، اخذت منه المفتاح واخبرته كيف يتوق ابن عمتى إلى زيارتى له ، لأنه مريض لا يستطيع الحضور إلى « الجرانج » ، وكيف اتوقع من والدى معارضة شديدة لذهابى .. ثم مضيت فى مساومته حول إعداد المهر لى .. وكان شغوفا بالقراءة ، ويفكر فى ترك خدمتنا قريبا ليتزوج .. وهكذا عرض على أن يقوم بكل ما اطلبه منه إذا اعرته كتبا من المكتبة .. ولكنى فضلت ان اعطيه من كتبى الخاصة ، فكان رضاه وسروره بها يفوق كل حد ..

وفى الزيارة الثانية ، بدا لى لينتون نشيطا فى خير حالاته ، واعدت لنا زيللا (مدبرة منزلهم) حجرة نظيفة ونارا تتلظى فى المدفأة ، ثم اخبرتنا بأن جوزيف خرج ليشترك فى صلاة جامعة ، وأن هيرتون صحب كلابه إلى الخارج ـ وسمعت فيما بعد أنه كان يسرق الطيور من غابتنا ـ ومن ثم يمكننا أن نفعل ما يحلو لنا .. واحضرت لنا بعض النبيذ الدافىء وكعك الزنجبيل ، وأبدت نحونا عطفا وطيبة بالغين .. وجلس لينتون فى المقعد الكبير ذى الوسادتين ، بينما اخترت لجلوسى

مقعدا هزازا صغيرا بجوار المدفأة ، ومضينا نضحك ونتبادل أحاديث المرح والسرور . ولم يعوزنا شىء من فنون الحديث ، ورحنا نرسم خطط ما سوف نفعله فى الصيف والأماكن التى سنذهب إليها .. وما بى من حاجة إلى ترديد ذلك على مسامعك لأنك ستسمينه سخفا ولغوا ..

ومع ذلك كدنا نتشاجر ذات مرة .. فقد قال أن أمتع وابهج طريقة لقضاء يوم حار من أيام شهر يوليو ، هى أن يرقد المرء من الصباح حتى المساء فوق تل مغطى بالعشب وسط البرارى ، والنحل يطن حوله وسط اكمام الزهور ، سعيدا هانئا ، والقنابر تحلق فوق رأسه تصدح بأنغامها الشجية ، بينما السماء الزرقاء والشمس الساطعة تملآن الفضاء حوله إشراقا وضياء لا تفسده السحب .. تلك كانت فكرته المثالية عن سعادة لا تطاولها سعادة الجنان .. اما قصارى السعادة فى رأيى فكانت التأرجح بين اغصان شجرة خضراء ، لأوراقها حفيف لا ينتهى .. تهب عليها ريح غربية ، وترفرف فوقها سحب بيضاء سريعة متتابعة ، وتتدفق الأنغام حولها من كل جانب ، لا من القنابر فحسب ، بل من كل أنواع الطيور الصداحة ، وتتراءى البرارى من بعد وهى تتكسر وديانا واخاديد باردة معتمة ، تتخللها قباب عظيمة من الحشائش الطويلة التى تتهدل تحت أنامل النسيم أمواجا بعد أمواج ، ويمتلىء الفضاء حولها بخشخشة الشجر وخرير جداول الماء ، والدنيا كلها من حولى يقظى ترقص فى وحشية على أنغام من الطرب والسرور .. كان كل ما يريده هو أن يرقد

فى نشوة من الهـدوء والدعة ، وكانت كل أمنيتى ان اتلألا وارقص فى عيد عظيم من اعياد الدنيا .. قلت له إن عالمه ليس إلا عالمـا مسجى بين الحياة والموت ، فقال لى إن عالمى ليس إلا عالمـا ثملا مخمورا !.. قلت إننى فى عالمه لا البث ان يدركنى النعاس ، فقال إنه فى عالمى لا يلبث ان يضحى مقطوع الانفاس !.. ثم اخذته نوبة من القحة وسلاطة اللسان ، ولكنى رحت الاينه حتى اتفقنا فى النهاية على ان يجرب كلانا كلا العالمين ، عندما يحين موعد الطقس الملائم ، وعندئذ تبادلنا القبلات وعدنا صديقين ..

وبعد ان ظللت جالسة فى سكون زهاء ساعة ، تطلعت حولى إلى الحجرة العظيمة بأرضيتها العارية الجميلة ، وفكرت فى روعة اللعب فيها إذا رفعنا المـائدة .. فطلبت إلى لينتون ان يدعو زيللا لمساعدتنا ، ولتلعب معنـا لعبة (الاستغماية) ، فتحاول ان تمسك بنا وهى معصوبة العينين ، كما اعتدت ان تلعبى معنا يا إيلين .. فلم تطب له هذه اللعبة ، وزعم ان ليس فيها متعة أو تسلية .. ولكنه رضى أن يلعب معى بالكرة. ووجدنا كرتين فى الصوان وسط كومة من اللعب القديمة و (النحل) والمضارب والسهام المريشة .. وكان على إحدى الكرتين حرف «ك» وعلى الأخرى حرف «هـ» ، فرغبت فى اخذ الاولى لعلمى أن الحرف المنقوش عليها يرمز إلى «كاثرين» ، وأن الاخرى قد ترمز إلى اسمه هو اى « هيثكليف » ، ولكن حشو كرته كان يبرز من ثقب فيها ، فلم ترق فى نظره !.. وظللت أغلبه باستمرار ، فتملكه الغضب من جديد ، واخذ

يسعل ، ثم عاد إلى مقعده .. ومع ذلك ، فقد عاد إلى مرحه وانبساطه فى تلك الليلة بغير عناء ، مأخوذا بسحر اغنيتين او ثلاث من اغنياتك الجميلة يا إيلين .. وعندما اضطررت إلى الانصراف ، راح يرجونى ويتوسل إلى بأن أعود إليه فى المساء التالى ، فوعدته بذلك .. وعاد بى « مينى » إلى الدار فى خفة الهواء وسرعة الريح !.. وقضيت ليلتى حتى الصباح احلم « بمرتفعات ويذرنج » وبابن عمتى اللطيف المحبوب !

ولازمنى الاكتئاب فى اليوم التالى لسببين : أولهما ان المرض اشتد عليك ، والثانى لأنى كنت أود أن يعرف ابى بالأمر ، ويوافق على رحلاتى هذه .. فلما فرغت من تناول الشاى ، كان القمر قد اشرق بضيائه الساحر الجميل ، وسرعان ما تبدد اكتئابى عندما ركبت ذاهبة إلى هناك .. كنت امنى نفسى بقضاء أمسية سعيدة أخرى ، ولكن الذى زاد من ابتهاجى هو أن لينتون كان سيقضى بدوره امسية سعيدة .. ودخلت بالجواد إلى حديقة المنزل ، وهممت بأن أدور حوله إلى الباب الخلفى ، عندما قابلنى ذلك الشخص هيرتون ، وامسك بعنان جوادى ، وطلب إلى أن أدخل من الباب الامامى .. وراح يربت على عنق « مينى » ويقول انه جواد جميل أصيل ، وكان يبدو كأنما يسعى وراء دفعى إلى تبادل الحديث معه .. ولكنى لم أقل له أكثر من ان يترك الجواد وشـأنه ، حتى لا يركله .. فأجاب بلهجته السوقية وهو يفحص سيـقان الجواد بأنظاره فى ابتسام : « لو فعل ذلك فلن يحدث أذى كبيرا » .. وكنت أكاد أميل إلى جعل الجواد يجرب فيـه

ذلك !.. ومهما يكن من أمر فانه مضى أمامى ليفتح الباب ، وما ان وضع يده على المزلاج حتى تطلع إلى النقوش التى تعلوه(١) ، وقال فى مزيج أبله من الارتباك والزهو معا :

ــ أستطيع الآن ان أقرأ هذه الكتابة يا مس كاثرين !

فهتفت قائلة :

ــ ما شــاء الله !.. ما أبدع ذلك !.. أسمعنا إذن من فضلك .. لقد ازددت ذكاء وحذقا كما يبدو !

فأخذ يتهجى الحروف ، ويتمشدق بالمقاطع ، حتى قرأ « هيرتون ايرنشو » .. ولكنه ما لبث ان سـكت فجأة .. فلما طال صمته قلت أستحثه مشجعة :

ــ والأرقام ؟

ــ لا أستطيع قراءتها بعد !

فقهقهت ضاحكة فى جذل ، وصحت به :

ــ آه يا بليد !

فراح الغبى يحملق فى وجهى وقد حامت حول شـفتيه تكشيرة واسعة ، وتجمعت حول عينيه جهامة وعبوس ، كأنما أخذته الحيرة فيما إذا كان يجدر به ان يشاركنى المرح ، وفيما إذا كانت كلماتى تنم عن مجرد ملاحظة ودية ، أم أنها ــ كما كانت فى الحقيقة ــ تنم عن الازدراء والاحتقار ..

---

(١) يذكر القارىء أن البــاب الرئيسى تعلوه نقوش تقرأ « هيرتون ايرنشو » وتحت هذا الاسم نقشت سنة بناء الدار « ١٥٠٠ » .

وحسـمت شكوكه ، بأن استعدت فجأة رصانتى ، وسألته أن يمضى لشأنه لأننى قدمت لزيارة لينتون ، لا لرؤيته هو .. فرأيت وجهه ، فى ضوء القمر ، تعلوه حمرة قانية . وأبعد يده عن المزلاج ، ثم انصرف متواريا عن أنظارى وهو صورة مجسمة للزهو المهيض .. وأحسبه قد خال نفسه سيدا مهذبا مصقولا مثل لينتون لمجرد انه عرف كيف يتهجى اسمه !.. فخاب أمله إذ وجدنى لا أقدر له هذه المنزلة ..

قالت مسز دين تتابع حديثها : فقاطعتها قائلة :

ــ مهلا يا عزيزتى مس كاثرين .. اننى لن ألومك أو أؤنبك ، ولكنى لا أحب مسلكك هذا .. فلو انك ذكرت أن هيرتون هو ابن خالك مثلما كان السيد هيثكليف ابن عمتك ، لادركت مبلغ تجنبك الصواب بمسلكك وتصرفك على هذا النحو .. وعلى الأقل فان طموحه إلى مجاراة لينتون وتطلعه إلى أن يكون مهذبا مصقولا مثله ، أمر كان يستحق منك الاعجاب والاطراء .. ولعله لم يرد تعلم القراءة لمجرد رغبته فى التفاخر ، فلست أشك فى انه خجل عندما عيرته بجهله ، فأراد أن يداوى هـذا الجهل ، ويستجلب غبطتك ورضـاك .. لذلك فان السخرية من جهوده المتواضعة إنما تنم عن سوء الأدب !.. ولو انك ربيت فى مثل ظروفه ، فهلا كنت نشأت أقل تهذيبا وأكثر همجية ؟.. لقد كان وهو طفل صغير لا يقل عنك نشاطا وذكاء ، وانه ليؤلمنى ويؤذى شعورى أن يلقى الآن مثل هذا الازدراء والاحتقار ، لا لسبب إلا لظلم ذلك السـافل هيثكليف له ، وسقيه إياه كؤوس الهوان والمذلة ..

فدهشت لحماستي وغيرتي ، وصاحت قائلة :

ـ حسنا يا إيلين .. لا أحسبك سوف تبكين من أجله !.. اصبري حتى تسمعي إذا كان قد حفظ الحروف الأبجدية مرضاة لي ، وإذا كان ذلك الوحش يستحق المعاملة في أدب ورقة !.. لقد دخلت إلى حجرة الجلوس ، فوجدت لينتون راقدا فوق الأريكة ، وقد هم بالنهوض للاقائي وهو يقول :

ـ إنني مريض الليلة يا حبيبتي كاترين ، فعليك أن تتولى الحديث كله ، وتدعيني أصغى إليك فحسب .. تعالى واجلسي بجانبي !.. لقد كنت واثقا من انك ستفين بوعدك ، وسوف تعدينني الليلة أيضا بالحضور غدا ..

وكنت قد أدركت أنني لا ينبغي لي أن أضايقه أو أعانده ، لأنه كان سقيما .. فرحت أتحدث إليه في رفق وهدوء ، لا أوجه إليه أي سؤال ، متجنبة كل ماقد يثيره .. وكنت قد أخذت له معي بضعة من أجمل كتبي ، فطلب إلى أن أقرأ له قليلا في أحدها ، وكنت على وشك أن ألبي رغبته ، عند ما دفع ايرنشو الباب في عنف ، وقد جمع بين سموم الحقد والنية السيئة المبيتة ، فتقدم نحونا مباشرة ، وأمسك بذراع لينتون وجذبه فطوح به من فوق الأريكة وهو يقول في صوت مدغوم من شدة الغضب والانفعال ، وقد انتفخت أوداجه وبدا ثائرا شديد الهياج :

ـ هيا اذهب إلى حجرتك !.. وعليك أن تأخذها إلى هناك مادامت تحضر لرؤيتك .. انك لن تحرمني من الجلوس هنا ، فاذهب إلى الشيطان أنت وهي !

وانطلق يرمينا بأقذع السباب ، ولم يدع للينتون الفرصة لإجابته ، بل سحبه إلى باب المطبخ ودفعه إليه ، ثم رفع قبضته في وجهي بينما كنت أتبع لينتون ، حتى ظننت أنه يتوق إلى أن يصرعني أرضا !.. وتملكني الفزع لحظة ، فسقط أحد الكتب من يدى ، وعندئذ ركله بقدمه ورائي وهو يوصد خلفنا باب المطبخ .. وفي تلك اللحظة سمعت ضحكة خبيثة مجلجلة تنبعث من جانب الموقد ، فاستدرت ورأيت ذلك الشيخ البغيض جوزيف واقفا يفرك يديه المقددتين ، وهو يهتز طربا ويقول :

ـ كنت واثقا من انه سيطردكما .. فهو فتى عظيم ، سرت في عروقه روح أجداده العظيمة .. إنه يعلم ، مثلما أعلم ، منذا الذى كان يجب أن يكون السيد هنا .. ها .. ها ها !.. لقد أفزعكما تماما .. ها .. ها .. ها .. ها !

ولم أبد اكتراثا لسخرية الوغد العجوز ، وسألت ابن عمتي :

ـ أين يجب أن نذهب الآن ؟

ولكن لينتون كان شديد الامتقاع يرتعد غضبا وانفعالا .. وصدقيني يا إيلين انه لم يكن جميلا وقتئذ .. كلا .. بل كان يبدو لي مخيفا مفزعا .. لأنه وجهه النحيل وعينيه الواسعتين كانت جميعا تتقلص في غضب جنوني مغلول .. فأمسك بمقبض الباب وراح يهزه بكل ما وسعته قوته ، وكان موصدا من الداخل ، وهو يصيح بصوت حاد :

ـ إذا لم تفتح لي الباب فسوف أقتلك !.. إذا لم تفتح



فرأيته يحمل لينتون المسكين بين ذراعيه ليصعد به الدرج الى الطابق العلوى ..

لى الباب فسوف أقتلك ! .. أيها الشيطان .. أيها الشيطان ! .. سوف أقتلك ! .. سوف أقتلك !

تجلجلت قهقهة جوزيف الساخرة من جديد ، وراح يقول :

ـ من شابه أباه ! .. انه ابوه تماما ! .. لقد جمعنا السلالتين حولنا .. واحد هنا وواحد هناك ! .. لا تخش شيئا يا هيرتون ، يا بنى ، ولا تخف منه فانه لا يستطيع ان ينالك ..

وامسكت بيدى لينتون وحاولت ان اجذبه بعيدا عن الباب ولكنه كان يصرخ صراخا مقيتا جعلنى لا اجرؤ على المضى فى محاولتى .. وأخيرا اختنقت صيحاته فى نوبة مروعة من .. فجريت إلى الفناء وقد غشيت نفسى من الرعب ، وناديت السعال ، وما لبث أن تدفق الدم من فمه وسقط على الأرض زيللا بأعلى صوت استطعته .. وسرعان ما سمعتنى ، وكانت تحلب الأبقار تحت مظلة وراء صومعة الغلال ، فتركت ما فى يدها وهرعت إلى تسألنى عما هنالك .. وكنت مبهورة الأنفاس لا أستطيع النطق وشرح الأمر ، فاكتفيت بأن جذبتها نحو المطبخ ، ورحت انظر حولى باحثة عن لينتون ، فاذا بايرنشو قد ترك حجرة الاستقبال واتى ليرى آثار الشر الذى أحدثه ، فرأيته يحمل لينتون المسكين بين ذراعيه ويصعد به الدرج إلى الطابق العلوى .. فصعدت وراءه مع زيللا ، ولكنه اوقفنى عند قمة الدرج ، وقال اننى لا ينبغى أن ادخل الحجرة وراءهم ، وإنما يجب أن أعود إلى منزلى .. فصحت فيه : انه

قتل لينتون ، وان لابد لى من الدخول .. وعندئذ أوصد جوزيف باب الحجرة وقال انه لا يخلق بى ان أرتكب مثل هذه الحماقة ، وسألنى إن كنت أود أن أكون مجنونة مثل لينتون ؟ .. فظللت واقفة أبكى حتى ظهرت زيللا ثانية ، وأكدت لى انه حرى بأن يتحسن قليلا ، لو كف عن ذلك الصراخ وتلك الجلبة التى يحدثها ، ثم أخذتنى ، وهى تكاد تحملنى حملا ، إلى حجرة الجلوس ..

وصدقينى يا ايلين اننى كدت أقطع شعر رأسى ، ومضيت أبكى وأنتحب حتى غشيت عيناى ولم اعد أبصر شيئا .. وكان ذلك الوغد الذى تعطفين عليه بهذا القدر يقف تجاهى ، ويبيح لنفسه بين آن وآخر ان يطلب إلى السكون ، ولا يفتا ينفى مسئوليته عما حدث .. وأخيرا انتابه الفزع من تأكيدى له باننى سأخبر أبى بما حدث ، وانه سوف يلقى فى السجن ثم يشنق ، فأجهش بالبكاء هو نفسه ، ثم انفلت مسرعا إلى الخارج ليخفى انفعاله واستخذاءه .. ومع ذلك فلم أتخلص منه تماما تلك الليلة .. فعندما انتهى الأمر بإرغامى على الرحيل ، وابتعدت من المنزل نحو ثلاثمائة ياردة ، انبعث فجاة امامى من الظلام على احد جانبى الطريق ، وامسك بزمام جوادى « مينى » وهو يقول لى :

ـ إننى شديد الحزن يا مس كاثرين .. ولكن ، فى الوقت نفسه ، كان من المؤلم لى ..

فعاجلته بضربة من سوطى اصابته بقطع دام فى وجهه ، وجعلتنى اظنه ربما قتلنى بسببها .. ولكنه ترك عنان الجواد ،

وانطلق يهدر بالفاظ السباب كالرعد القاصف ، فاطلقت العنان للجواد وعدت إلى المنزل وقد أوشكت أن افقد حواسى ..

ولم أذهب إلى حجرتك لاتمنى لك ليلة طيبة ، كما لم أذهب إلى « مرتفعات ويذرنج » فى الليلة التالية .. كنت شديدة الاشتياق إلى الذهاب ، ولكنى كنت مهتاجة الأعصاب إلى درجة غريبة .. كنت احيانا اتوجس شرا واخشى أن أسمع بموت لينتون ، وكنت احيانا ارتجف فزعا لمجرد التفكير فى الالتقاء بهيرتون .. وعاودتنى شجاعتى فى اليوم الثالث ، او الاحرى ان تقولى اننى لم اطق الصبر على مزيد من الحيرة والشك ، فتسللت ماضية إلى هناك مرة اخرى .. ذهبت فى الخامسة ، ماشية على قدمى ، وقد خيل إلى اننى استطيع تدبير الأمر بحيث اتسلل إلى المنزل ، ثم إلى حجرة لينتون ، دون ان يرانى احد .. ولكن الكلاب كشفت امرى وأذاعت نبا مقدمى ، فاستقبلتنى زيللا قائلة : « ان الفتى يتحسن على نحو بديع » . ثم قادتنى إلى حجرة صغيرة انيقة مفروشة بالسجاد ، امتلأ قلبى بسرور صامت عندما شهدت فيها لينتون راقدا فوق أريكة صغيرة ، يطالع كتابا من كتبى .. ولكنه لم يشا ان يخاطبنى او ينظر إلى خلال ساعة كاملة يا ايلين ! .. كان وقتئذ فى حالة تعسة من الشراسة وسوء الخلق .. والذى زاد من دهشتى وعقل لسانى عن الكلام ، انه عندما فتح فمه لم يفعل إلا لينطق بتلك الفرية المروعة ، وهى اننى كنت السبب فى ذلك الشجار ، وان هيرتون لا لوم عليه ولا تثريب !.. وإذ وجدتنى عاجزة عن الإجابة حتى

لا انفجر باكية ، فقد نهضت ومشيت خارجة من الحجرة .. فأرسل خلفي ذلك النداء الخافت : « كاثرين » !.. ولكن لم يكن في حسبانه وتقديره أن يكون ردي عليه ما فعلته ، إذ ضربت بندائه عرض الحائط ولم التفت إليه ، وانصرفت لتوي ..

وكان اليوم التالي هو المرة الثانية التي بقيت فيها في المنزل ، وقد كان يستقر في عزمي الا ازوره بعد ذلك قط .. ولكني لقيت من الشقاء في الذهاب إلى الفراش والنهوض عنه دون أن أسمع عنه شيئا قط ، ما جعل عزمي يتبدد في الهواء حتى قبل أن يستقر تماما .. لقد بدا لي مرة أن من الخطأ القيام بتلك الرحلة ثانية ، أما الآن فقد بدا لي أن الخطأ كل الخطأ إنما هو في الامتناع عنها .. وحضر إلى مايكل السائس ليسألني هل يسرج « ميني » ، فأجبته بالإيجاب ، وكنت اعد نفسي والمهر يحملني فوق التلال ، قائمة بواجب لا مناص لي من أدائه .. وقد اضطررت إلى المرور أمام النوافذ الأمامية في طريقي إلى الفناء ، إذ لم يكن ثمة جدوى من إخفاء حضوري .

ورأتني زيلا اسير نحو البهو ، فقالت : « إن السيد الصغير في حجرة الجلوس .. »

ومضيت إلى تلك الحجرة ، فاذا ايرنشو هناك كذلك . ولكنه غادرها على الفور .. وكان لينتون يجلس في المقعد الكبير مغمض العينين ، شبه نائم .. فسرت نحو المدفأة ، ثم بدات أقول في لهجة رصينة ، عنيت بان يبدو فيها صدق ما اقوله إلى حد ما :

ـ هذا آخر لقاء بيننا يا لينتون ، ما دمت لا تميل إلي ، وما دمت تظن انني لا أحضر إلا بقصد الإساءة إليك ، وتزعم انني افعل ذلك في كل مرة .. فليقل كل منا للآخر «وداعا» ، وعليك أن تخبر مستر هيثكليف بأنك لا تضمر اية رغبة في رؤيتي ، وان عليه أن يكف عن اختلاق المزيد من الاكاذيب عن هذا الأمر ..

فأجاب :

ـ اجلسي يا كاثرين ، واخلعي قبعتك .. انك تلقين من السعادة أكثر مما القاه ، ولذلك ينبغي لك أن تكوني أفضل مني واحسن خلقا .. إن ابي ينسب إلي من العيوب ، ويظهر نحوي من الازدراء ما يكفي لأن يجعل من الطبيعي أن يتملكني الشك في نفسي !.. إنني اشك فيما إذا لم اكن تافها حقيرا بالقدر الذي لا يفتأ ينعتني به ؟.. وعندئذ أشعر بالحنق والمرارة ، فامقت الناس جميعا .. إنني اكاد اكون دائما تافها حقيرا ، سيىء الخلق ، خبيث النفس .. وفي وسعك ، إذا شئت ، ان تقولي لي وداعا .. فأنت بذلك سوف تتخلصين من شيء يزعجك وتضيقين به .. ولكني لا اريد منك يا كاثرين إلا ان تكوني عادلة معي .. وصدقيني انني اود لو انني كنت في مثل رقتك ، وحنانك ، وطيبتك .. اود ذلك بكل قواي وعن رضى واختيار ، دون ان اجاريك في سعادتك وصحتك .. وصدقيني ان طيبتك معي ورفقك بي قد جعلني احبك حبا عميقا ، اكثر مما لو كنت قد نلت حبك عن جدارة

واستحقاق .. ومع انني لا استطيع ، وليس في قدرتي ، ان اخفي عنك طبيعتي المشاكسة ، فانني أشعر بالأسف من ذلك ، واندم عليه .. وسوف اظل آسفا نادما حتى الفظ انفاسي الاخيرة !

احسست بانه يقول الحقيقة ، واحسست بانني يجب ان اصفح عنه .. ومع انه سوف يتشاجر معي ، في اللحظة التالية ، فان من واجبي أن امنحه المزيد من الصفح والتسامح .. وعقد الصلح بيننا ، ولكن بمداد من الدموع ظللنا نذرفه معا بقية الوقت الذي مكثته ، وإن لم يكن كله دمع الحزن والأسف !.. ومع ذلك فقد اسفت لأن لينتون كانت له هذه الطبيعة المعوجة .. فانه لن يريح اصدقاءه قط ، لا ولن يريح نفسه !

وكنت اذهب معه إلى البهو دائما ، منذ تلك الليلة ، لان اباه عاد من رحلته في اليوم التالي .. وفي تلك المدة كلها ، لم نقض من الأمسيات السعيدة المرحة المليئة بالأمل إلا ثلاثا !.. اما باقي زياراتي فكانت جميعها كئيبة مليئة بالهموم ، بين أنانيته ومشاكسته حينا ، وبين أوجاعه واسقامه أحيانا .. ولكني تعلمت أن احتمل الأولى بمثل الصبر والأناة اللذين احتمل بهما الثانية .. وكان مستر هيثكليف يتجنبني عامدا ، فلم اره طوال هذه المدة إلا مرة واحدة .. فقد ذهبت يوم الأحد الماضي مبكرة عن عادتي ، فسمعته يسلق لينتون بألسنة حداد على مسلكه معي في الليلة السابقة وهو شيء لا ادري كيف عرفه ، إلا ان يكون يسترق السمع

علينا .. كان مسلك لينتون ، في الحقيقة والواقع ، مثيرا يبعث على الحنق والسخط .. ولكن ، مهما يكن من امر ، فذلك امر لا يخص احدا سواي .. وهذا ما قلته لمستر هيثكليف عندما اقتحمت الحجرة وقطعت عليه محاضرته القاسية .. وعندئذ انفجر مقهقها ، ثم غادر الحجرة وهو يبدي سروره لانني نظرت إلى الامر هذه النظرة .. ومنذ تلك الليلة طلبت إلى لينتون ان يجعل تذمره وسخطه المرير همسا !

وها انت قد علمت كل شيء الآن يا ايلين .. ولن يمكن منعي من الذهاب إلى « مرتفعات ويذرنج » إلا على انقاض سعادة شخصين ، في حين انك لو وقفت موقفا سلبيا ولم تفضي لابي بهذا السر ، فان ذهابي لن يضير احدا او يسيء إليه .. إنك لن تخبريه ، اليس كذلك ؟.. ولو فعلت لكان عملك قاسيا خلوا من الرحمة !

* * *

فاجبتها :

ـ إن الامر يحتاج إلى دراسة وتفكير يا مس كاثرين ، وسوف اقطع برأي فيه غدا .. اما الآن ، فسوف اتركك لتستريحي ، واذهب لامعن الفكر فيه ..

وقد فكرت فيه حقا ، ولكن بصوت مسموع أمام سيدي .. فما كدت أغادر حجرتها حتى مضيت إليه قدما ورويت له القصة بحذافيرها ، لم اغفل منها سوى احاديث الفتاة مع

ابن عمتها ، وسوى ذكر هيرتون ، فلم يجر اسمه على لسانى بكلمة .. واستبد القلق والكرب بمستر لينتون ، اكثر مما اظهره امامى .. وفى الصباح علمت كاثرين بخيانتى لها وإفشاء سرها ، وعلمت كذلك بأن زيارتها الخفية لابن عمتها قد قضى عليها نهائيا .. وعبثا راحت تبكى وتحتج على هذا القرار ، وتتوسل إلى ابيها ان يشفق على لينتون ، فكان كل ما نالته منه لتهدئتها ان وعدها بأن يكتب إلى لينتون ويصرح له بالحضور إلى « الجرانج » كلما شاء ، ولكن عليه ان يفهم بجلاء انه ما من سبيل لذهاب كاثرين إلى « مرتفعات ويذرنج » بعد ذلك .. ولعله لو علم حقيقة حالة ابن اخته النفسية والصحية ، لوجد من الملائم أن يضن عليها حتى بهذه الترضية اليسيرة ..

* * *

الفصل الخامس والعشرون

قالت مسز دين تتابع رواية القصة :

وقعت هذه الحوادث ، ياسيدى ، فى الشتاء الماضى ، فلم يكد يمر عليها عام باكمله .. وما خطر لى على بال ، فى الشتاء الماضى ، أننى سوف أجلس بعد انقضاء اثنى عشر شهرا ، إلى شخص غريب عن الأسرة لأسليه بقصص افرادها .. ومع ذلك فمن يدرى إلى متى ستظل غريبا عنها ؟ .. انك من الشباب وصغر السن بحيث لا يخلق بك ان تظل دائما تعيش وحدك فى عزلة وانطواء .. ثم انه ليخيل إلى ، على وجه ما ، انه ما من احد يرى كاثرين لينتون ويستطيع ان يقاوم حبها فى نفسه !.. انت تبتسم الآن ، ولكن لماذا يبدو عليك الاهتمام والحيوية كلما اتكلم عنها ؟ .. ولماذا طلبت إلى أن أعلق صورتها فوق المدفأة فى حجرتك ؟.. ولماذا ؟

فصحت بها مقاطعا :

ـ كفى ياصديقتى الطيبة !.. قد يكون من المحتمل جدا اننى سوف اقع فى حبها ، ولكن هل يمكن أن تحبنى هى ؟.. اننى اشك فى ذلك إلى حد بعيد يجعلنى لا أجرؤ على المخاطرة بهدوئى وسكينتى جريا وراء الاغراء .. ثم اننى لست من هذه الديار .. اننى من العالم الزاخر بالعمل وبالناس ، ولا بد لى من العودة إلى أحضانه .. فهيا امضى فى حديثك ، واخبرينى هل اطاعت كاثرين أوامر والدها ؟

فاستأنفت مدبرة المنزل تقول :

— نعم .. فإن حبها له كان لا يزال أقوى عاطفة تغمر قلبها .. وقد تحدث إليها أبوها فى غير غضب أو انفعال .. بذلك الحنان العميق لشخص يوشك أن يترك كنزه وسط المخاطر والأعداء ، حيث تظل كلماته الخالدة هى المعين الوحيد الذى يمكن أن يخلفه لها .. ومع ذلك فقد سألنى بعد أيام قليلة :

— شد ما أود أن يكتب لنا ابن أختى أو يزورنا ، يا إيلين ! .. ولكن أخبرينى برأيك فيه ، بصراحة وإخلاص .. هل تحسنت حالته ؟.. أو هل هناك أمل فى تحسنها عندما يغدو رجلا ؟

— إنه مفرط فى الرقة والضعف يا سيدى ، ولا أظنه يعيش حتى يبلغ مبلغ الرجال !.. ولكننى أستطيع أن أؤكد لك شيئا واحدا ، هو أنه لا يشبه أباه فى شىء .. ولو شاء سوء الطالع أن تتزوج مس كاثرين منه ، فلن يتمرد عليها أو يخرج عن طاعتها إلا إذا كانت شديدة التسامح معه إلى حد البلاهة ! .. وعلى أية حال ، فإن أمامك ، يا سيدى ، فسحة من الوقت لتزداد معرفة به ولترى إن كان يصلح زوجا لها ، فما زالت أمامه أعوام أربعة ـ أو تزيد ـ حتى يبلغ سن الزواج ..

فتنهد ادجار ، ومشى إلى النافذة متثاقلا ، ثم راح يتطلع بأنظاره ناحية كنيسة « جيمرتون » .. وكنا وقتئذ بعد ظهر أحد الأيام التى ينتشر فيها الضباب ، ولكن شمس فبراير كانت ترسل ضياء خافتا بالقدر الذى استطعنا معه أن نميز

شجرتى الشربين الباسقتين فى فناء الكنيسة ، والقبور المتناثرة المتباعدة ..

وما لبث أن راح يقول فى صوت خفيض، كأنه يناجى نفسه :

— لقد كنت كثيرا ما أبتهل إلى الله أن يعجل بما لا بد من وقوعه ، ولكنى بدأت الآن أخشاه وأنفر من مقدمه !.. وكانت ذكرى الساعة التى هبطت فيها من ذلك التل البعيد عريسا يوم زفافى ، أقل حلاوة وعذوبة من تفكيرى فى توقع حملى إليه عاجلا ، بعد شهور قليلة ـ أو ربما أسابيع ـ لأوضع داخل جوفه الموحش .. إننى كنت سعيدا كل السعادة ، يا إيلين ، مع صغيرتى كاثى ، فقد كانت خلال ليالى الشتاء وأيام الصيف أملا زاخرا بالحياة يتواثب إلى جانبى .. كانت سعادتى بها لا تعادلها إلا سعادتى فى الاستغراق فى التأمل وحدى بين هذه الأحجار ، تحت تلك الكنيسة العتيقة ، أو راقدا ـ خلال ليالى يونيه الطويلة ـ بين الحشائش النامية فوق قبر أمها ، وكلى لهفة وحنين إلى الساعة التى أوضع فيها داخل هذا القبر بدورى .. فماذا أستطيع أن أفعل من أجل كاثى ؟ .. وكيف ينبغى أن أتركها ؟.. إننى ما كنت لأبالى لحظة واحدة بأن لينتون هو ابن هيثكليف ، ولا بأنه سوف يأخذها منى ، لو علمت أنه قادر على تعزيتها عن فقدى وتهوين المصاب عليها .. وما كنت لأبالى كذلك بأن هيثكليف قد حقق كل أهدافه وأفلح حتى فى سلبى آخر ما لدى من أسباب السعادة .. أما أن يكون لينتون شخصا تافها غير جدير بها ـ مجرد أداة ضعيفة فى يد أبيه ـ فعندئذ لا أستطيع

على الأمر سكوتا ، ولا أسمح بأن أتركها له .. ومهما يكن تصرف من القسوة فى تحطيم روحها المرحة النشيطة ، فلا بد من أن اثابر على جعلها حزينة مكتئبة أثناء حياتي ، وأن أخلفها وحيدة عند مماتى .. آه ! .. يا للعزيزة الغالية !.. اننى لأفضل ان اسلمها بين يدى الله ، واوسدها الثرى قبلى !

فاجبته قائلة :

ـ دع الله يتولاها برعايته يا سيدى .. وإذا قدر لنا أن نفقدك يوما ـ لا سمح الله ـ فانني بعنايته ورحمته سوف اكون لها الصديقة والناصحة حتى النهاية .. ان مس كاثرين فتاة طيبة ، لا اخاف عليها الوقوع فى الزلل عن عمد .. وان اولئك الذين يؤدون واجبهم يلقون دائما خير الجزاء اخيرا ..

وتقدم بنا الربيع ، ولكن سيدى لم يستكمل قواه ولم يستعد صحته ، مع أنه عاود القيام بجولاته فى الحديقة مع ابنته .. وكان ذلك فى حد ذاته فى رايها ـ لقلة خبرتها ـ دليلا على نقاهته .. وكثيرا ما كانت وجنتاه تتوردان بحمرة قانية ، وعيناه تلتمعان فى بريق خاطف ، فأيقنت من تمام شفائه !

وفى عيد ميلادها السابع عشر ، لم يقم بزيارة المقبرة كعادته .. كان اليوم مطيرا ، فقلت له فى ملاحظة عابرة :

ـ لا ريب أنك لن تخرج الليلة ياسيدى ؟

ـ كلا .. سوف أؤجل زيارتى هذا العام قليلا ..

وكتب ثانية إلى لينتون معبرا عن رغبته الشديدة فى رؤيته .. ولو كان الفتى العليل فى حالة تسمح له بالحضور ،

لسمح له ابوه بالمجىء .. لا شك فى ذلك ولا ريب .. ولكن الذى حدث هو أنه ـ بناء على تعليمات أبيه طبعا ـ كتب إلى خاله خطابا يوحى بأن مستر هيثكليف يعارض فى زيارته « للجرانج » ، ويقول فيه ان ذكرى خاله الشفوق ما زالت تبعث السرور فى نفسه ، وبوده ان يلقاه فى إحدى جولاته ، يوما من الأيام ، ليسعد برؤيته ، وليتوسل إليه بنفسه كى لا يظل وابنة خاله مفترقين طويلا ، هذه الفرقة القاطعة ..

كان هذا الشطر من الخطاب بسيطا ساذجا ، وهو ـ على الأرجح ـ من إنشائه .. ولكن مستر هيثكليف كان يعلم أنه أفصح لسانا من ابنه فى الدفاع عن صحبته لكاثرين ، فقد مضى الخطاب يقول : « لست ارجو أن تسمح لها بزيارتى هنا .. ولكن هل قدر على أن احرم رؤيتها إلى الأبد ، لأن والدى يمنعنى من الذهاب إلى منزلها ، وأنت تمنعها من زيارة بيتى ؟ .. فهلا صحبتها ، بين آن وآخر ، إلى طريق « المرتفعات » فتتيح لنا بذلك فرصة نتبادل فيها كلمات قليلة فى حضورك ؟ .. اننا لم نقترف ذنبا نستحق عليه هذا الفراق !.. وانت نفسك لست غاضبا منى ، وليس لديك ـ كما تقول ـ ما يثير حقدك علي وكراهيتك لى !.. فاكتب لى ، يا خالى العزيز ، رقعة رحيمة غدا ، واسمح لى بأن القاكما فى اى مكان تختاره « ثرشكروس جرانج » .. وفى يقينى ان لقاء بينك وبينى سوف يقنعك بأننى لست على شىء من اخلاق ابى !.. بل إنه هو نفسه يؤكد اننى ابن اختك اكثر من أن اكون ابنه !.. ومع ان لى اخطائى التى تجعلنى غير جدير بكاثرين فانها قد صفحت عنها .. وعليك أن تصفح عنها

بدورك ، من أجل خاطرها !.. وقد سألتنى عن صحتى .. انها احسن حالا الآن .. ولكنى طالما بقيت محروما من الأمل ، مقضيا على بالوحدة التعسة ، أو بمعاشرة اولئك الذين لم يحبونى ، ولن يحبونى قط ، فمن اين لى أن اكون سعيدا ، أو تتقدم صحتى بخطى حثيثة ؟ »

وعلى الرغم من حب ادجار للغلام ورثائه له ، فانه لم يستطع تلبية هذا الرجاء ، لانه لم يكن قادرا على الخروج فى صحبة كاثرين .. فكتب إليه أنهم ربما استطاعوا اللقاء فى الصيف ، ولكنه يود منه فى الوقت نفسه أن يستمر فى الكتابة إليه بين الحين والآخر ، ووعده بأن يقدم له ، فى خطاباته ، كل ما فى وسعه من النصح او راحة البال ، لعلمه بمركزه العسير وسط عائلته .. وقد استجاب لينتون لرغبة خاله .. ولو انه كان حرا غير مقيد فى كتابته ، لكان من الارجح ان يفسد كل شىء بملء خطاباته بالشكوى والنحيب !.. ولكن اباه كان يرقبه بعين لا تغفل ، وكان يصر ـ بطبيعة الحال ـ على أن يرى كل كلمة يكتبها سيدى إليه أو يكتبها لينتون لخاله .. وهكذا فانه بدلا من ان يحشو خطاباته بآلامه وهمومه الشخصية العجيبة ، وهى التى لا تفتأ تتخذ فى أفكاره اعلى منزلة ، فقد راح يردد نغمة واحدة لا يحول عنها ، هى ذلك الحكم القاسى بأن يظل محروما من صديقته وحبيبته .. وكان يلمح فى رفق إلى واجب مستر لينتون بالسماح له بلقاء قريب ، والا خشى ان يكون قاصدا خداعه بالوعود المعسولة الجوفاء !

وكانت كاثى خير حليف له فى الدار ، فاستطاع كلاهما اخيرا ان يقنعا سيدى بالسماح لهما بنزهة يقومان بها معا مرة كل اسبوع ، راكبين او ماشيين ، فى حراستى ، وفى البرارى القريبة من الجرانج .. فقد حل شهر يونيه وهو ما يزال يذوى ويزداد ضعفا .. وكان يدخر فى كل عام شطرا كبيرا من دخله لتكون منه ثروة لسيدتى الصغيرة ، ولكنه كان ، مع ذلك ، يحس رغبة طبيعية فى أن تستعيد منزل اجدادها ، او على الأقل تعود إليه عما قريب .. وكان يعتقد ان املها الوحيد فى تحقيق ذلك إنما هو بزواجها من وريثه .. فلم تكن لديه اية فكرة عن سير الفتى نحو النهاية بخطى حثيثة ، بل بأسرع مما كان يسير هو .. وما من أحد كانت لديه هذه الفكرة ، كما أعتقد .. فلم يدع الطبيب لزيارة « المرتفعات » قط ، ولم يكن بيننا من يرى هيثكليف الشاب حتى ينبىء بحالته .. اما انا فقد بدأت ، من جانبى ، اعد تشاؤمى السابق كاذبا ، وتصورت انه ، ولا ريب ، اصبح الآن يفيض صحة وانشراحا ، لكثرة ما ذكره عن الركوب والنزهة بين البرارى ، وما بدا من تلهفه على متابعة آماله نحو هدفه المنشود .. فلم اتصور البتة أن والدا يمكن أن يعامل ولده المحتضر بمثل ذلك الطغيان الرهيب وتلك القسوة الشريرة التى علمت فيما بعد ان مستر هيثكليف كان يعامله بها ، ليرغمه على هذه اللهفة المصطنعة .. وكان يضاعف جهوده وقسوته ، كلما بدت له خطته الجشعة ، وطمعه المجرد من الشعور ، يهددهما الموت بالفشل والانهيار !

***

الفصل السادس والعشرون

كان الصيف قد جاوز عنفوانه ، عندما وافق ادجار ـ كارها ـ على تحقيق رجائهما ، فخرجت وكاثرين راكبتين جوادينا فى اول رحلة لها للقاء ابن عمتها .. وكان يوما شديد الجهامة احتبس فيه الهواء ، وغامت الشمس ، غير ان السحب المرقطة الرقيقة لم تكن تنذر بالمطر .. وكان موعدنا عند علامة الارشاد الحجرية فى مفترق الطرق ، ولكننا عندما وصلنا إلى هناك وجدنا غلاما من الرعاة فى انتظارنا ، وقد وفد رسولا ليقول لنا :

ـ إن السيد لينتون موجود الآن على ذلك الجانب الآخر ناحية « المرتفعات » ، وسيكون عظيم الامتنان لكما إذا تقدمتما قليلا ..

فغمغمت قائلة :

ـ إذن فقد نسى السيد لينتون اول شرط من شروط خاله واوامره .. لقد طلب إلينا ان نبقى فى حدود ارض « الجرانج » وها نحن نوشك على اجتيازها لاول وهلة ..

فأجابت رفيقتى :

ـ حسنا .. سوف ندير رؤوس الجياد عندما نصل إلى لينتون ، وسوف نجعل نزهتنا بذلك صوب المنزل !

فلما بلغنا مكانه ، وكان لا يكاد يبعد عن باب داره بأكثر من ربع ميل ، لم نجد معه جوادا ، فاضطررنا إلى الترجل ،

وتركنا جوادينا يرعيان الكلأ .. وكان راقدا فوق العشب ينتظر اقترابنا ، ولم ينهض من مضجعه حتى اصبحنا على بعد بضع ياردات منه ، وعندئذ مشى نحونا فى ضعف واسترخاء ، وكان يبدو شديد الشحوب بحيث لم املك إلا ان اصيح فى عجب :

ـ ما هذا يا سيد هيثكليف ؟.. انك لست فى حالة تسمح لك بالتجول بين البرارى هذا الصباح .. شد ما تبدو مريضا !

وكانت كاثرين ترمقه فى دهشة وأسى .. وبدلت صيحة الفرح التى كانت توشك على ان تنطلق من شفتيها ، إلى صيحة قلق وانزعاج ، والتهنئة التى كانت توشك على أن توجهها إليه لهذا اللقاء الذى طال ارتقابه ، إلى سؤال وجهته إليه فى لهفة وقلق عما إذا كان يجد نفسه اكثر سوءا من المعتاد .. فغمغم قائلا :

ـ كلا .. بل احسن كثيرا ..

وكان لاهث الأنفاس ، كثير الارتعاش ، وظل ممسكا بيدها كأنما كان بحاجة إلى الاستناد إليها ، بينما كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان ترمقانها بنظرات شاردة ، فى خجل وإعياء .. وكانت التجاويف التى كانت تحيط بهما قد احالت تلك النظرة الواهنة ـ التى كانت لهما ذات يوم ـ إلى نظرة ضالة شاحبة ..

وعادت بنت خاله تقول فى إلحاح :

ـ ولكنك ازددت سوءا عما كنت عندما رأيتك آخر مرة ، وازددت هزالا ، و ..

فقاطعها فى عجلة :

ـ إننى متعب .. والجو اليوم حار لا يسمح لنا بالمشى ، فدعينا نجلس هنا .. ثم اننى أشعر بالمرض فى الصباح ، ويقول ابى ان ذلك يرجع إلى سرعة نموى !

فجلست كاثى دون أن يبدو عليها الاقتناع بما يقول ، اما هو فقد اضطجع بجانبها .. وارادت ان تجاهد فى سبيل إشاعة جو من المرح حولهما ، فقالت :

ـ إن هذه تشبه الجنة التى تنشدها .. فهل تذكر اليومين اللذين اتفقنا على أن نقضيهما فى المكان وعلى النحو الذى يراه كل منا اكثر بهجة وسرورا ؟.. إن هذه هى جنتك أنت بلا جدال ، لولا السحب التى تحجب وجه السماء ، ولو انها رقيقة لينة .. وذلك افضل من وهج الشمس الساطعة .. ولكنك ، إذا استطعت ، سوف تركب معى فى الأسبوع القادم إلى حدائق « الجرانج » لترى جنتى أنا ..

ولم يبد على لينتون ما يدل على تذكره شيئا مما كانت تحدثت عنه ، وكان من الواضح انه يلقى عناء عظيما فى احتمال اى نوع من الحوار ومتابعته .. كان عدم اهتمامه بالموضوعات التى طرقتها ، وعجزه عن المساهمة بدوره فى الترويح عنها ، من الوضوح بحيث لم تستطع إخفاء امتعاضها وضيقها . فلقد اصاب شخصه ومسلكه تبدل شامل غريب غير واضح المعالم .. كانت المشاكسة التى تطمع فى الملاينة

إلى حد التدليل قد تركت مكانها فيه إلى نوع من البلادة والجمود وتراخى الشعور .. أصبح فيه القليل من ذاك الخلق المشاغب لطفل يعمد الاثارة والإغاظة حتى يلاطفه الناس ويتملقوه ، والكثير من تلك الكآبة والهموم المكبوتة التى تلازم شخصا عليلا لا يرجى له شفاء فيرفض العزاء والترويح ، ويعد طرب الآخرين ومرحهم إهانة له .. وقد تبينت كاثرين ـ كما تبينت ـ أنه يعتبر احتماله لصحبتنا عذابا وعقابا ، لا فضلا وعطفا ، فلم تتوان عن اقتراح الرحيل فى الحال .. وعلى غير ما كنا نتوقع ، اثار هذا الاقتراح لينتون من غيبوبته ، ودفع به إلى حالة غريبة من الانفعال ، وراح يتطلع نحو « مرتفعات ويذرنج » فى ذعر وهلع ، وهو يتوسل إلى كاثرين ان تبقى معه ولو نصف ساعة آخر .. فقالت :

ـ ولكنى اظن انك سوف تكون اكثر راحة فى منزلك عنك فى الجلوس هنا .. ثم اننى لا استطيع تسليتك اليوم ، كما ارى ، بقصصى واناشيدى وحديثى .. فقد ازددت عنى عقلا ورزانة خلال هذه الشهور الستة ولم تعد تتذوق لهوى ومرحى .. اما إذا كان فى استطاعتى أن ارفه عنك ، فانى مستعدة للبقاء عن طيب خاطر ..

فأجاب :

ـ بل امكثى حتى تنالى شيئا من الراحة .. ولا تظنى أو تقولى يا كاثرين اننى فى حالة بالغة السوء .. فالجو الثقيل والحرارة الشديدة هما اللذان يجعلانى ابدو متبلد الحس خاملا .. ثم اننى مشيت قبل مقدمك قدرا يفوق طاقتى .. فهل لك أن تخبرى خالى بأنى فى صحة لا بأس بها ؟

فقالت سيدتى الصغيرة متعجبة من إصراره على توكيد ما يبدو للعيان كذبا صراحا :

ـ سوف اخبره بأنك الذى تقول ذلك يا لينتون .. فانى لا استطيع أن اشهد بأنك كذلك حقا ..

فاستطرد يقول متجاهلا نظراتها المتحيرة :

ـ وتعالى إلى هنا يوم الخميس القادم ثانية .. وقدمى لخالى شكرى وامتنانى على سماحه لك بالحضور .. شكرى الخالص العميق يا كاثرين .. و .. وإذا حدث أن قابلت والدى وسألك عنى ، فلا توحى إليه بأننى كنت معك صامتا بليد الفهم .. ولا تظهرى امامه كئيبة منكسرة الخاطر ، كما تلوحين الآن .. انه سوف يغضب غضبا شديدا ..

فصاحت كاثرين وقد حسبت أنها ستكون هدف هذا الغضب :

ـ إننى لا ابالى بغضبه قط ..

فقال ابن عمتها ، مرتعدا :

ـ ولكنى ابالى به كثيرا .. فلا تثيريه ضدى يا كاثرين ، لانه شديد القسوة والصرامة ..

فتدخلت سائلة :

ـ أهو قاس معك يا سيد هيثكليف ؟ .. هل اضجرته الرحمة وسئم التسامح ، فانقلبت كراهيته السلبية إلى إيجابية ؟

فنظر إلى لينتون ، ولكنه لم يجب .. ولبثت كاثرين جالسة بجانبه عشر دقائق اخرى ، كانت راسه خلالها تسقط فوق صدره كشخص غلبه النعاس ، لا يتكلم ولا ينطق إلا بانين مكتوم من الالم او الاجهاد ، حتى ملت كاثرين تلك الجلسة فقامت تنشد العزاء فى البحث عن حبات التوت البرى ، وتشركنى معها فى ثمار بحثها ، دون أن تعرض شيئا منها عليه ، لانها رات بنفسها أن اية محاولة لتنبيهه لن تجدى إلا فى إضجاره وإغضابه !

واخيرا همست فى أذنى قائلة :

ـ هل انقضى نصف الساعة يا ايلين ؟.. اننى لا ادرى لماذا ينبغى أن نبقى بعد ذلك ، فهو مستغرق فى النوم ، كما ان ابى يتعجل عودتنا إلى الدار ..

ـ حسنا .. لا يجب أن نتركه نائما ، فاصبرى حتى يستيقظ ، ودعى عنك هذه العجلة .. لقد كنت تتحرقين شوقا إلى الخروج للقائه ، وهاانتذى ارى اشتياقك لرؤية لينتون المسكين قد تبخر وتبدد سريعا !

فاجابت كاثرين :

ـ ولكن لماذا طلب ان يرانى ؟.. لقد كان فى طباعه السابقة من سوء الخلق والمشاكسة احب إلى نفسى منه فى الحالة الغريبة التى غدا عليها الآن .. ان الامر ليبدو كما لو كان إلحاحه فى لقائى مهمة ارغم على ادائها خوفا من تقريع ابيه وانتهاره إياه .. ولكن لا يمكن أن احضر لمجرد إدخال السرور

على قلب مستر هيثكليف الأب مهما تكن لديه من بواعث لإرغامه لينتون على مكابدة هذا العذاب.. وانى ، وإن كنت مسرورة لتحسن صحته ، إلا اننى حزينة لانه غدا اقل ظرفا ، بل اقل انعطافا نحوى إلى حد بعيد ..

فقلت :

ـ هل ترين إذن انه احسن صحة ؟

ـ نعم .. لأنه كان دائما يولى آلامه واوجاعه أعظم اهتمام ، كما تعلمين .. انه ليس فى صحة طيبة كما طلب إلى أن اقول لأبى ، ولكنه أحسن حالا فيما يبدو ..

ـ هذا ما أختلف عنك فيه يا مس كاثى .. فانى اراه اسوأ بكثير ..

وفى تلك اللحظة ، افاق لينتون من نعاسه مذعورا مشدوها ، يسأل فى لهفة هل نادى أحد باسمه ، فقالت كاثرين :

ـ كلا ، ما لم تكن سمعته فى الحلم !.. ولكنى لا استطيع أن اتصور كيف يمكنك أن تغفو خارج منزلك ، ونحن ما زلنا فى الصباح ..

فقال لاهثا ، وهو يتطلع إلى قمة التل المتجهمة فوقنا :

ـ ظننتنى سمعت صوت أبى .. هل أنت واثقة من ان احدا لم يتكلم ؟

فاجابته ابنة خاله :

ـ واثقة تماما .. وكل ما فى الأمر اننى كنت اجادل ايلين فى شأن صحتك .. فهل ازددت قوة حقا عما كنت عند

افتراقنا فى الشتاء يا لينتون ؟ .. إذا كان الأمر كذلك ، فانى واثقة من ان شيئا واحدا لم يزدد قوة ، وهو تقديرك لى !.. تكلم .. هل انت احسن حالا حقا ؟

فتدفقت الدموع من عينيه وهو يتمتم :

ـ نعم .. نعم .. إننى كذلك ..

وكأنما كان لا يزال مأخوذا برهبة ذلك الصوت الخيالى ، إذ راحت انظاره الحائرة تجوب الأنحاء نحونا ليكتشف مكان المنادى .. وعندئذ نهضت كاثرين قائلة :

ـ كفانا هذا اليوم ، ولنفترق الآن .. غير انى لا أخفى عليك ان لقاءنا قد أحزننى وخيب آمالى .. ولكن لن اقول ذلك لأحد سواك ، دون أن يكون ذلك لخوف من مستر هيثكليف!

فغمغم لينتون مرعوبا :

ـ صه !.. اسكتى بحق السماء ، فانه قادم !

ثم تعلق بذراع كاثرين ، محاولا إبقاءها معه .. ولكنها إذ سمعت ما قاله ، أسرعت تخلص نفسها من يده ، ثم صفرت لمهرها الذى اسرع يلبى النداء ككلب مطيع ، ووثبت فوق ظهره ، وهى تصيح :

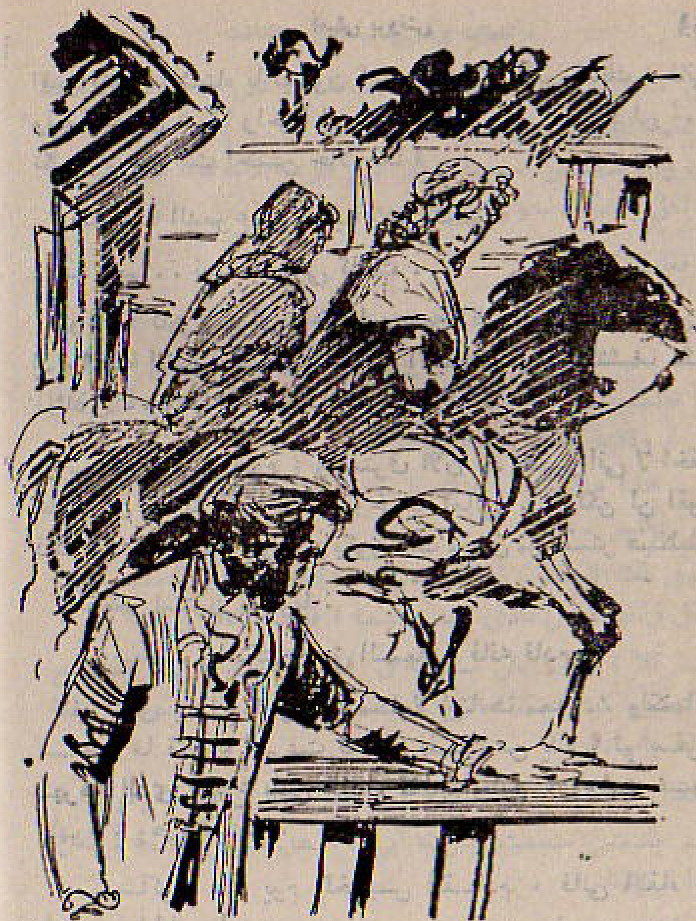
ـ ساكون هنا يوم الخميس القادم ، فالى اللقاء .. اسرعى يا ايلين !

وهكذا خلفناه وهو لا يكاد يحس برحيلنا ، إذ كان مستغرقا فى التوجس من اقتراب أبيه ..

وقبل ان نصل إلى المنزل ، كان سخط كاترين قد لان حتى غدا شعورا امتزجت فيه الحيرة بالأسف والرثاء ، وأخذت تتراوحها شكوك غامضة قلقة نحو ظروف لينتون الحالية ، سواء الجسمانية أو العائلية .. ولقد شاركتها هذه الشكوك ، ولو أننى اشرت عليها بكتمان الأمر ، والتريث حتى تهيىء لنا رحلتنا القادمة أسباب الحكم على الأمور ..

وسألنا سيدى بيانا عن رحلتنا ، فنقلت إليه كاترين شكر ابن أخته وامتنانه ، ومست حوادث باقى الرحلة مسا رقيقا .. كذلك اجبت على اسئلته بردود غامضة ، فلم اكن اعرف ما يجب ان اخفيه ، وما يجب ان اكشف عنه الحجاب !

❋ ❋ ❋



ثم صفرت لمهرها الذى أسرع يلبى النداء كالكلب مطيع ، ووثبت فوق ظهره ..

الفصل السابع والعشرون

انصرمت أيام سبعة ، كان كل منها يترك اثرا لمروره بالتبدل السريع الذى طرأ على حالة ادجار لينتون .. واصبحت الساعات تتسابق الآن فى غزواتها لصحته ، بعد ان ظلت الشهور الماضية تنسج خيوطها على مهل للقضاء عليه .. وكنا نمنى انفسنا بان تظل كاثرين جاهلة لحالة ابيها ، ولكن روحها الحساسة ابت ان تظل سادرة فى خداعها لنفسها ، فادركت حقيقة الأمر فى اعماقها ، وانشغل بالها بذلك الاحتمال المروع الذى أخذ يستكمل تحوله إلى حقيقة واقعة .. فلما اقبل يوم الخميس ، لم يطاوعها قلبها على ذكر شىء عن نزهتها المرتقبة ، ولكنى توليت ذكر الأمر أمام سيدى ، فاذن لى بان ارغمها على الخروج ، لأن غرفة سيدى ومكتبته التى كان يمكث بها فترة يسيرة كل يوم ـ الفترة اليسيرة التى يحتمل فيها مشقة الجلوس ـ كانتا قد اصبحتا دنياها بأسرها .. كانت تحقد على كل لحظة تحرمها من الانحناء فوق وسادته او الجلوس إلى جانبه .. وعلا وجهها الشحوب والامتقاع من الحزن ومن السهر على راحته .. حتى لقد سر سيدى بالسماح لها بالذهاب إلى ما كان يمنى نفسه بان يكون تغييرا سعيدا للمناظر المحيطة بها ، والوسط الذى تعيش فيه ، وقد وجد الراحة والعزاء فى الأمل الذى راوده من أنه لن يتركها وحيدة تماما بعد مماته ..

وكانت لديه فكرة ثابتة ، استطعت ان استشفها من الملاحظات العديدة التى افلتت من لسانه ، وهى انه ما دام

ابن اخته يشبهه جسما وشكلا فلا شك فى انه يشبهه روحا وعقلا ، إذ كانت خطابات لينتون الصغير لا توحى بشىء ، او باقل القليل ، عن خلقه المعيب !.. اما انا فقد احجمت فى ضعف مغتفر ، عن مكاشفته بالحقيقة ، وساءلت نفسى : اية جدوى يمكن أن تكون فى إزعاج ساعاته الأخيرة بمعلومات ليست له القوة أو الفرصة على أن يتخذ لها موقفا ايجابيا ..

وارجأنا نزهتنا إلى بعد الظهر .. وكان يوما ذهبيا من ايام شهر اغسطس ، وكل نسمة تهب فيه من ناحية التلال مليئة بالحياة حتى ليخيل إليك ان اى امرىء يستنشقها ويكون مشرفا على الموت ، فسوف تبعث فيه الحياة من جديد .. وكان وجه كاثرين اشبه بالمنظر الذى يمتد امامنا !.. تتتابع عليه الظلال والشمس المشرقة ، فى سرعة وعجلة .. ولكن الظلال كانت اطول أمدا ، على حين كان الاشراق عابرا عجولا ، وكان قلبها الصغير المسكين لا يفتأ نادما على تلك اللحظات العابرة التى يتناسى فيها همومه ومشاغله ..

وجدنا لينتون يرقب مجيئنا فى نفس البقعة التى اختارها اول مرة .. فترجلت سيدتى عن مهرها ، وقالت لى انها عازمة على البقاء فترة وجيزة ، ومن الأفضل ان اظل راكبة وان امسك بمقود جوادها .. ولكنى ابيت ذلك ، فما كنت لأخاطر بترك وديعتى تغيب عن انظارى لحظة واحدة .. وهكذا رحنا نرقى المرتفع المعشوشب معا ، حيث تلقانا السيد هيثكليف بمزيد من اللهفة والانتعاش هذه المرة .. ولكنها لم تكن لهفة السرور ، أو لهفة الشوق ، وإنما كانت تبدو اشبه بالفزع والذعر ..

وابتدرنا قائلا ، وهو ينطق فى صعوبة :

ـ لقد تأخرت كثيرا ! .. وظننت انك لن تأتى .. الم يشتد المرض على ابيك ؟

فصاحت كاثرين ، وهى تطبق فمها على عبارات التحية التى كانت تهم بها :

ـ لماذا ، بربك ، لا تكون صادقا صريحا ؟ .. ولماذا لا تقول مباشرة انك لا تريدنى ؟ .. ان امرك عجيب يا لينتون ، فهذه هى المرة الثانية التى تأتى بى فيها إلى هنا عن عمد ، لا لسبب إلا لجلب الألم والأسى إلينا معا ..

فارتجف لينتون ونظر إليها نظرة طويلة ، فيها ضراعة وفيها حياء .. ولكن صبر ابنة خاله لم يكن ليتسع لاحتمال مسلكه الغامض ، فقالت :

ـ إن والدى مريض جدا .. فلماذا انتزعتنى من جوار فراشه ؟ .. ولم لم تبعث إلى لتحلنى من وعدى ، عندما كنت تتمنى ان انكث به ؟ .. هيا .. اريد تفسيرا لكل ذلك الآن .. فان اللعب واللهو والعبث أشياء لم يعد لها مكان فى فكرى ، ولم يعد فى وسعى الآن ان ارعى رياءك فى خضوع ومذلة ..

فغمغم قائلا :

ـ ريائى ؟ .. اين ريائى هذا ؟ .. بحق السماء ياكاثرين ، لا تدعى الغضب يتملكك هكذا ! .. لك ان تحتقرينى كيفما تشائين ، فانى تعس جبان حقير .. وانى استحق المزيد من

التقريع والتأنيب ، ولكنى أتفه من أن أثير غضبك .. امقتى والدى وابغضيه ، وأبقى لى الاحتقار والازدراء !

فصاحت كاثرين فى غضب وانفعال :

ـ هراء ! .. وانت غلام معتوه ابله ! .. انظرى .. انه يرتعد كما لو كنت انوى حقا ان امسه ! .. كلا يالينتون ، لا حاجة بك إلى ان تتعجل الاحتقار ، فان اى امرىء يحتفظ لك به تحت امرك عند الطلب ! .. انهض ، فسوف أعود إلى منزلى .. لقد كان من الجنون حقا اجتذابك من جوار الموقد ، زعما باننا .. ولكن ما الذى زعمناه ؟ .. دع طرف ثوبى ! .. وإذا كنت قد رثيت لك واشفقت عليك لبكائك وما يبدو عليك من آثار الفزع الرهيب ، فان الأخلق بك أن تترفع عن شفقتى هذه ! .. قولى له يا ايلين كم فى مسلكه هذا من هوان شائن ! .. انهض ، ولا تنزل بنفسك إلى مرتبة الزواحف الخسيسة ! .. لا .. لا تفعل هذا !

فقد ارتمى لينتون بهيكله المنهار الاعصاب على الارض ، وراح يتمرغ تحت قدميها ، والدموع تخضل وجهه الشاحب الذى ارتسمت عليه معالم الألم الفظيع .. كان يبدو كان فزعا مروعا يهز جسمه هزا ..

وبين شهقاته ونحيبه ، راح يقول :

ـ آه ! .. اننى ما عدت أحتمل ذلك ! .. كاثرين ! .. كاثرين ! .. اننى خائن ايضا ، ولست أجرؤ على إخبارك ! .. ولكن لو تركتنى ، فسيكون مصيرى القتل .. ان حياتى بين

يديك ياعزيزتى كاثرين ، وقد قلت انك تحبيننى .. فاذا كنت كذلك حقا ، فان الامر لن يضرك فى شىء !.. انك لن تذهبى إذن ، يا كاثرين الجميلة ، الشفوقة ، الطيبة ؟ .. ومن يدرى فلعلك توافقين .. وعندئذ يتركنى ابى حتى أموت معك !

وإذ رات سيدتى الصغيرة ما يقاسيه من عذاب فظيع ، انحنت ترفعه من الأرض ، وقد تغلب شعور العطف والتسامح القديم على غضبها وحنقها .. وازداد تأثرها وقلقها ، فقالت تسأله :

ـ اوافق على اى شىء ؟ .. على البقاء ؟.. قل لى ما الذى تقصده من هذا الكلام الغريب ، وسوف ابقى معك بعض الوقت .. ولكن مسلكك يناقض اقوالك ، فتحيرنى وتبلبل افكارى .. تاهدأ وكن صريحا ، واعترف لى للتو بما يثقل قلبك .. انك لا تود الإساءة إلى يا لينتون ، أليس كذلك ؟ .. ولن تدع اى عدو يؤذينى إذا كان فى وسعك أن تمنعه ، أليس كذلك ؟ .. اعتقد انك قد تكون رعديدا جبانا فى نفسك ، ولكنك لن تكون من النذالة بحيث تخون خير صديقة لك ..

فراح يعصر اصابعه الرخوة وهو يقول لاهثا :

ـ ولكن ابى قد توعدنى بشر مستطير ، وانى اخشاه .. اخشاه بفزع عظيم .. فلا اجرؤ على ان اقول شيئا ..

فقالت كاثرين فى حنان ساخر :

ـ آه .. حسنا .. اكتم سرك إذن !.. اما انا فلست على شىء من الجبن .. انج انت بنفسك ، فانى غير خائفة !

فاثارت نخوتها دموعه ، وراح يبكى فى ضراوة ، ويغطى يديها المسكتين به بقبلاته وعبراته معا .. ومع ذلك لم يستطع ان يستجمع شجاعته ليفشى ما يكتمه ..

وبينما كنت أفكر فيما عسى أن يكون ذلك السر ، واقرر فى نفسى ان كاثرين لا ينبغى ان تتالم فى سبيله او فى سبيل احد غيره ، دون أن احرك ساكنا ، إذا بى اسمع حفيفا بين الهيش ، فتطلعت إلى يمينى ، وإذا مستر هيثكليف يوشك ان يهبط فوق رؤوسنا قادما من « المرتفعات » .. ولم يلق نظرة واحدة على رفيقى ، مع انهما كانا قريبين منه إلى حد يجعل نحيب لينتون واضحا مسموعا فى اذنيه ، وإنما نادانى فى نبرات ودودة لا احسبه خاطب بها احدا من الناس فى حياته قط .. وفى ذلك الاخلاص الذى لم أملك نفسى من الشك فيه ، قال :

ـ ما اجمل ان اراك بالقرب من منزلى يا نللى !.. كيف حالك فى « الجرانج » ؟

ثم خفض من صوته ، واستطرد يقول :

ـ ولكن طمئنينى .. لقد شاع ان ادجار لينتون على فراش الموت ، أفلا يكون ذلك مبالغة فى خطورة مرضه ؟

ـ كلا .. ذلك صحيح تماما ، فان سيدى فى الاحتضار .. وسيكون موته امرا محزنا لنا جميعا ، وإن كان نعمة عليه ورحمة له ..

ـ إلى متى يطول احتضاره ، فى رايك ؟

— ومن اين لى ان ادرى ؟

فتطلع ناحية الصغيرين اللذين جمد حراكهما تحت نظراته

— لان لينتون كان يبدو كأنما لا يستطيع ان يجرؤ على ان يحرك اصبعا او يرفع راسا ، كما ان كاثرين لم تستطع الحراك لانه كان مستندا إليها متعلقا بها — ثم استطرد يقول لى :

— لان هذا الغلام يبدو مصمما على هزيمتى !.. وكم اكون شاكرا لخاله لو استحث خطاه وقضى نحبه قبله !.. ولكن هل كان الجرو يلعب لعبته هذه منذ امد طويل؟.. لقد لقنته « بعض » الدروس عن البكاء والولولة .. فهل كان بشوشا فرحا مع مس لينتون عادة ؟

— بشوشا فرحا ؟.. كلا .. بل كان يشكو آلامه ومتاعبه .. وعندما رأيته ، وجدته خليقا ان يكون راقدا فى فراشه ، بين يدى الطبيب ، بدلا من ان يهيم على وجهه فوق التلال مع حبيبته !

فغمغم هيثكليف :

— سوف يكون كذلك بعد يوم أو اثنين .. أما الآن ..

ثم استطرد بصوت عال :

— انهض يا لينتــون !.. انهض حــالا ، ولا تزحف على الأرض هناك .. قم سريعا فى هذه اللحظة !

فان لينتون كان قد عاد إلى الانبطــاح على الارض وقد اصابته نوبة أخرى من الفزع اليائس أحسب ان سببها نظرة

أبيه نحوه ، فلم يكن ثمــة سبب آخر لهذه المذلة .. وقام بمحاولات عديدة لإطاعة أبيه ، ولكن قواه القليلة الباقية كانت قد تلاشت تماما ، فسقط على الأرض ثانية وهو يتأوه متألما .. فتقدم مستر هيثكليف نحوه ، ورفعه حتى أسنده إلى دغلة كثيفة من الهيش ، وهو يقول فى شراسة رادعة :

— لقد بدأت أغضب منك الآن !.. وإذا كنت لا تسيطر على روحك الخائرة هذه .. آه !.. لعنــة الله عليك .. انهض حالا !

فأجاب الغلام فى أنفاس لاهثة متلاحقة :

— سأقوم يا أبتاه .. فقط دعنى وحدى وإلا غشى على .. لقد فعلت كل ما طلبت منى ان افعله .. اننى واثق من ذلك .. وسوف تخبرك كاثرين اننى .. اننى كنت معها مرحا طروبا !.. آه !.. ابقى بجانبى يا كاثرين .. أعطينى يــدك !

فقال أبوه :

— خذ يدى أنا ، وقف على قدميك .. والآن ؟.. سوف تقدم لك ذراعها .. حسنا .. انظر إليهــا هى .. لعلك تتصورين يا مس لينتون أننى الشيطان نفســه ، إذ اثير مثل هذا الفزع .. هلا تكرمت بالسير معه حتى المنزل ؟.. سوف يرتعد خوفا إذا لمسته !

فهمست كاثرين قائلة :

— ولكنى لا أستطيع الذهاب معك إلى « مرتفعات ويذرنج »

يا عزيزى لينتون .. لقد حرم على ابى ذلك .. انه لن يؤذيك ، فلماذا كل هذا الخوف ؟

ـ لا استطيع ابدا ان ادخل هذا المنزل ثانية .. بل ليس لى ان ادخله بدونك !

فصاح أبوه :

ـ صه !.. إننا سوف نحترم تمسك كاثرين بطاعتها لابيها .. خذيه انت إلى المنزل يا نللى ، وسوف اعمل بنصيحتك واحضر له الطبيب دون إمهال ..

ـ حسنا تفعل .. ولكنى يجب ان ابقى مع سيدتى .. فليست العناية بابنك من شانى !

ـ إنك شديدة الصلابة ، كعهدى بك .. ولكنك ستضطريننى إلى ان اقرص الغلام ، واجعله يملأ الدنيا صراخا ، قبل ان يحرك شفقتك وإحسانك !

واقترب منه ثانية ، ومد يده نحوه كأنما يريد أن يمسك بذلك المخلوق الهش الخائر .. ولكن لينتون ارتد إلى الوراء مجفلا ، وتعلق بابنة خاله ، وراح يتوسل إليها أن تصحبه إلى المنزل ، فى إلحاح جنونى لا يحتمل إباه . وبرغم اننى كنت غير موافقة ، فانى لم استطع منعها من الذهاب .. وكيف كان يمكنها أن ترفض مصاحبته حقا ؟.. اننا لم يكن فى وسعنا ، ولا فى متناول يدنا ، أن ندرك كنه ذلك الرعب الذى يملؤه .. وإنما كنا نراه امامنا ضعيفا متخاذلا تحت قبضة

هذا الفزع الرهيب ، ولا شك أن أية زيادة عليه كانت كفيلة بإصابته بالجنون ..

فلما بلغنا باب المنزل ، صحبت كاثرين العليل إلى الداخل ، على حين وقفت انتظرها ريثما تقوده إلى مقعد او اريكة ، متوقعة ان تخرج على التو ، وإذا مستر هيثكليف يدفعنى إلى الامام ، هاتفا :

ـ إن بيتى ليس موبوءا بالطاعون يا نللى !.. ثم اننى اريد ان اكون كريما مضيافا اليوم .. هيا اجلسى .. واسمحى لى بأن اغلق الباب !

ولكنه لم يغلقه فحسب ، وإنما اوصده بالمفتاح .. فاجفلت ، وهممت بالقيام ، ولكنه اضاف مستطردا :

ـ سوف تتناولان الشاى معى قبل عودتكما ، فاننى وحدى اليوم ، إذ خرج هيرتون ببعض الماشية إلى السوق ، كما ذهبت زيلا وجوزيف فى إجازة للراحة والفسحة !.. وبرغم اننى اعتدت هذه الوحدة ، إلا اننى افضل كثيرا أن أستمتع بصحبة لطيفة ، بين آن وآخر ، إذا تيسرت لى .. خذى مقعدك واجلسى بجانبه يا مس لينتون .. اننى اقدم لك ما لدى .. وما لدى الآن لا يكاد يستحق شرف قبولك ، ولكن لا حيلة لى فى الامر ، فهو (الحاضر) ، وليس لدى ما اقدمه لك غيره !.. ما لها تحملق فى وجهى !.. من العجيب اننى ينتابنى شعور وحشى حيال كل شىء يبدو خائفا منى !..

ولو كنت قد ولدت فى مكان آخر حيث القوانين اقل وطأة ، والأذواق اقل تأنقا ، لسليت نفسى بتقطيع اوصال هذين الاثنين حيين تقطيعا بطيئا ، ولجعلت من ذلك تسلية المساء !

ثم زفر بأنفاسه ، ولطم المائدة بقبضة يده ، وهو يغمغم ساخطا :

ـ يا للجحيم !.. شد ما اكرههما !

فصاحت كاثرين ، التى لم يكن فى وسعها ان تسمع الشطر الاخير من كلامه :

ـ اننى لا أخشاك ولا اخافك !

ثم خطت متقدمة نحوه ، وعيناها السوداوان تومضان بالغضب والعزم القوى ، وقالت :

ـ أعطنى ذلك المفتاح .. سوف آخذه بنفسى !.. اننى لن أذوق هنا طعاما او شرابا ولو هلكت جوعا وظما ..

وكان هيثكليف يضع المفتاح فى يده الممدودة فوق المائدة .. فرفع انظاره يتطلع إليها ، وقد اذهلته جرأتها ، أو لعل صوتها ونظرتها قد ذكراه بالمرأة التى ورثتهما عنها .. واختطفت المفتاح ، وكادت تفلح فى إخراجه من بين اصابعه المنفرجة ، عندما اخرجته فعلتها من ذهوله ، وردته إلى الحاضر ، فاستعاد المفتاح سريعا ، وقال :

ـ اسمعى يا كاثرين لينتون .. اذهبى بعيدا ، وإلا صرعتك أرضا !.. وإن كان ذلك يصيب مسز دين بالجنون !

ولكنها لم تعبأ بوعيده ، وامسكت ثانية بيده المطبقة على المفتاح ، وهى لا تفتأ تردد :

ـ سوف نخرج .. سوف نخرج حتما ..

وراحت تبذل قصارى جهدها فى إلانة عضلاته الفولاذية ، فلما فشلت أظفارها فى إحداث اى اثر فيها ، بدأت تستخدم أسنانها الحادة استخداما بارعا .. وعندئذ رمقنى هيثكليف بنظرة جعلتنى اجمد فى مكانى ، لا أقوى على التدخل ، لحظة .. وكانت كاثرين منحنية فوق يده ، منهمكة فى إعمال أسنانها فى اصابعه ، فلم تنتبه إلى التبدل الذى اعترى وجهه ، عندما فتح اصابعه فجأة ، وتركها تأخذ المفتاح من بينها ، ولكنها قبل ان تستولى عليه تماما ، امسك بها بيده المتحررة ثم جذبها فوق ركبته ، وانهال عليها بيده الأخرى بلطمات عنيفة مروعة فوق جانب رأسها ، وكل منها خليقة بأن تصرعها ارضا لو كانت تستطيع السقوط ..

واندفعت نحوه ثائرة ، إذ رأيت هذا البطش الشيطانى ، وبدأت أصيح به : أيها النذل .. أيها الوحش ..

ولكن أخرستنى وكزة شديدة تلقيتها فى صدرى ، وقطعت أنفاسى على رغم ما لى من قوة وصحة .. واجتمع على الألم والغضب فترنحت مرتدة إلى الخلف ، وقد دارت بى الأرض ، حتى سقطت وقد أوشكت ان يصيبنى الاختناق او ينفجر شريان فى رأسى !

وانتهى المشهد فى دقيقتين .. فرأيت كاثرين ، بعد أن أطلق سراحها ، تضع كلتا يديها فوق صدغيها ، وهى تبدو

كما لو كانت غير واثقة مما إذا كانت اذناها فى مكانيهما أو انتزعتا !.. كانت المسكينة ترتعد كقصبة فى مهب الريح ، وتستند إلى المائدة فى ذهول ودهشة بالغين ..

وانحنى الوغد ليلتقط المفتاح الذى كان قد سقط على الأرض ، وهو يقول :

ـ إننى اعرف كيف أؤدب الأطفال العصاة ، كما رايت .. والآن اذهبى إلى لينتون ، وخذى راحتك فى البكاء كيفما شئت .. سوف اكون اباك غدا ـ الأب الوحيد الذى سيبقى لك بعد أيام قليلة ـ وسوف تنالين منى الكثير مما رأيت .. انك لست ضعيفة ، وفى وسعك أن تحتملى المزيد ، وستنالين جرعة منه كل يوم لو لمحت فى عينيك شيطان القحة مرة اخرى ..

وجرت كاثى ـ لا نحو لينتون ـ ولكن نحوى ، فركعت امامى واراحت وجنتها الملتهبة فى حجرى ، وهى تنشج نشيجا عاليا .. أما ابن عمتها فقد كمن فى ركن الأريكة ، هادئا كالجرذ ، يهنىء نفسه بالسلامة .. بل يخيل إلى أنه كان سعيدا بأن التأديب حل بشخص آخر سواه !

ونهض مستر هيثكليف ، إذ رآنا جميعا واجمين مبهوتين ، فتولى بنفسه عمل الشاى فى خفة وسرعة .. وكانت الأقداح والأطباق مرصوصة على المائدة منذ البداية ، فملأها وناولنى قدحا منها ، وهو يقول :

ـ اطردى عنك الحقد والغضب ، وهيا قدمى الشاى

« لدلوعتك ودلوعتى » !.. انه ليس مسموما ، وإن كان من صنع يدى !.. أما انا فذاهب للبحث عن جواديكما ..

وكان اول ما طرأ على فكرنا ، اثر انصرافه ، ان ندبر لنفسينا طريقا للخروج من أى منفذ ، ولو قسرا .. فأسرعنا نجرب باب المطبخ ولكنا وجدناه موصدا من الخارج .. ونظرنا إلى النوافذ ولكنها كانت اضيق من ان تتسع للمرور حتى لجسم كاثى النحيل .. فلما رايت اننا سجينتان ما لنا من خلاص ، صحت بالغلام :

ـ إنك تعلم ، يا سيد لينتون ، ما يسعى ابوك الشيطانى وراءه ، وسوف تخبرنا به على الفور وإلا الهبت صدغيك كما فعل بابنة خالك ..

فقالت كاثرين :

ـ نعم يا لينتون .. يجب ان تخبرنا .. فقد كان من اجلك ان حضرت إلى هنا ، ومن الجحود الشرير ان ترفض مصارحتنا بالحقيقة ..

فاجاب مرتاعا :

ـ اعطينى اولا قليلا من الشاى ، لانى ظمآن ، وعندئذ سوف اخبرك بكل شىء .. ابعدى عنى يا مسز دين ، فانى لا احب وقفتك فوق راسى !.. وأنت يا كاثرين ، لقد تركت دموعك تسقط فى قدحى .. اننى لن اشربه ، فاعطينى قدحا آخر !

فدفعت إليه كاترين قدحا غيره ، وجففت دموعها ووجهها .. وشعرت بالاشمئزاز من مسلك ذلك التعس الصغير ، منذ ان امن على نفسه ، وفارقه الفزع مما عساه يصيبه !.. كان الذعر الذى اظهره فوق البرارى ، قد سكن وهدا بمجرد دخوله « مرتفعات ويذرنج » .. وحدست من ذلك انه كان قد انذر بان يحل به افظع العقاب إذا فشل فى إيقاعنا فى الشرك واقتيادنا إلى داخل المنزل .. فلما تم له ذلك ، لم يعد لديه ثمت سبب مباشر للخوف !

واستطرد يقول ، بعد ان رشف قليلا من الشاى :

ــ إن ابى يريد ان يعقد زواجنا .. وهو يعلم ان اباك ان يوافق على زواجنا الآن .. ولكنه يخشى ان اموت إذا ارجانا الأمر .. ولذلك فسوف نتزوج فى الصباح ، وستبقين هنا هذه الليلة .. فاذا نفذت رغبته ، فسوف تعودين إلى منزلك فى اليوم التالى ، وستأخذيننى معك ..

فهتفت قائلة :

ــ تأخذك أنت معها ايها المتقلب المنافق الحقير ؟.. انت تتزوج ؟.. لماذا ؟.. إن الرجل قد اصابه الجنون ، او يعتقد اننا بلهاء جميعا !.. هل تتصور ان هذه السيدة الشابة الجميلة ، التى تفيض بالصحة والنضارة وطيبة القلب ، يمكن أن تتزوج من قرد صغير مشرف على الهلاك مثلك ؟!.. وهل تراك تتعلق بفكرة أن هناك اية فتاة ــ ودعك من مس كاترين لينتون ــ يمكن ان ترضى بك زوجا ؟.. انك تستحق الجلد بالسياط على إحضارك إيانا إلى هنا ، باخاديعك الخسيسة

النواحة !.. لا تظهر الآن بهذه البلاهة بعد ما فعلت !.. والله اننى لاود الآن ان اظل اهزك فى عنف ، جزاء خيانتك الحقيرة ، وخدعتك السخيفة !

والواقع اننى امسكت به وهززته هزة يسيرة ، ولكنها كانت كافية لإثارة سعاله ، ثم لجا إلى معينه العادى من الأنين والبكاء ، مما جعل كاترين تنتهرنى ..

وراحت تتلفت حولها فى تمهل وإمعان ، وهى تقول :

ــ كلا .. لن نبقى هنا الليلة !.. سوف أخرج من هنا يا إيلين ، ولو حرقت هذا الباب ..

وكانت تهم بتنفيذ وعيدها فى الحال ، عندما جفل لينتون فزعا على شخصه العزيز ثانية ، وتعلق بها بين ذراعيه الضعيفتين ، قائلا فى عويل :

ــ الا تريدين ان ترضى بى ، فتنقذينى ؟.. الا تريدين ان اذهب معك إلى « الجرانج » ؟.. أواه يا عزيزتى كاترين .. لا ينبغى لك ان تذهبى وتتركينى الآن !.. بل يجب ان تطيعى ابى .. يجب ان تطيعيه حتما ..

فاجابته :

ــ بل يجب ان اطيع ابى ، وانقذه من عذاب الانتظار الأليم .. أأقضى الليلة كلها هنا ؟.. وماذا عساه يظن ؟.. انه سوف يقلق لغيابنا وتشتد كربته .. ولابد لى من ان احطم اى منفذ او احرقه حتى اخرج من هنا .. اسكت واهدا !.. فلست

معرضا لأى خطر !.. أما إذا حاولت منعى يا لينتون .. اننى احب ابى اكثر مما احبك ..

وكان الفزع المميت الذى ينتابه من غضب مستر هيثكليف ، قد أعاد إلى الغلام فصاحته وذلاقته المنبعثتين من جبنه وخوره ، حتى كادت كاثرين تنشغل به عن موقفها .. ومع ذلك ظلت تصر على وجوب عودتها لمنزلها ، ولجأت إلى التوسل والاستعطاف بدورها ، محاولة إقناعه بان يقهر آلامه وينسى انانيته .. وفيما كانا منهمكين فى هذا الجدال دخل سجاننا ثانية ، وهو يقول :

ـ لقد شرد جواداكما ، ولم أجدهما ، و .. ما هذا يا لينتون ؟.. هل عدت إلى البكاء ثانية ؟.. ما الذى كانت تفعله بك ؟.. هيا .. هيا .. يكفيك ذلك الآن ، فاذهب إلى فراشك .. انك بعد شهر أو اثنين يا بنى ، سوف تكون قادرا على أن تكيل لها الصاع صاعين وتثار لنفسك من طغيانها الحالى ، بيد مليئة بالقوة !.. انك الآن تذوى وتضعف من حنينك إلى الحب الخالص ، أليس كذلك ؟.. ولا شىء سواه فى هذا العالم يقض مضجعك ويهدم صحتك .. ولكنها سوف تكون لك !.. اذهب إلى فراشك الآن ، ويجب أن تخلع ثيابك بنفسك ، فان زيللا لن تكون هنا الليلة .. صه !.. كف عن هذه الضجة !.. انك متى ذهبت إلى حجرتك فاننى لن اقترب منك ، ولا حاجة بك إلى الخوف منى .. وعلى فكرة ، فانك أجدت التصرف اليوم ، وسوف يكون من شأنى تدبير مابقى..

وكان ينطق بهذه الكلمات وهو يمسك بالباب منفرجا لمرور

ابنه .. أما لينتون فقد كان فى مروره يشبه تماما ما يفعله كلب صغير يشك فى أن الواقف بالباب يضمر له شرا ويرتقب فرصة مروره ليطبق الباب عليه فيهصره هصرا .. وأوصد الباب من جديد ، واقترب هيثكليف من المدفأة ، حيث كنت وسيدتى نقف صامتتين .. فتطلعت كاثرين نحوه ، ثم رفعت يدها إلى وجنتها فى حركة غريزية ، إذ كان وقوفه فى جوارها يحيى شعورا اليما فى نفسها .. وان اى شخص غيره لخليق بأن ينظر إلى هذه الحركة الصبيانية فى إشفاق وتأثر ، ولكنه كشر فى وجهها ، وتمتم قائلا :

ـ آه !.. ألم تقولى انك لا تخافيننى ؟.. انك إذن تخفين شجاعتك وراء قناع ماهر ، لانك تبدين شديدة الفزع !

ـ إننى خائفة الآن فعلا .. لأننى إذا بقيت هنا فسيشقى والدى لغيابى .. وكيف يمكن لى ان احتمل شقاءه وعذابه ، بينما هو .. بينما هو .. آه !.. دعنى ارجع إلى منزلى يا مستر هيثكليف ، واعدك باننى سوف اتزوج من لينتون ، لان والدى يود ان اتزوج منه ، كما اننى احبه .. لماذا تريد ان ترغمنى على ما سافعله عن طيب خاطر ومن تلقاء نفسى ؟..

فصرخت قائلة :

ـ دعيه يجرؤ على إرغامك !.. إن فى هذا البلد قانونا ، والحمد لله ، ولو اننا فى مكان ناء من العمران .. سوف ابلغ عنه ولو كان ابنى ، فهذه جريمة خطيرة لا يسرى عليها قانون العفو !

فصاح الوغد :

ـ اخرسى .. ولتذهب صيحاتك هذه إلى الشيطان !.. إياك ان تتكلمى بعد ذلك !

ثم استطرد يقول لكاثرين :

ـ إننى يا مس لينتون سوف اجد متعة عظيمة فى التفكير بان والدك سوف يشقى بسببى .. بل سيطير النوم من عينى رضى وارتياحا .. وما كان فى وسعك ان تجدى وسيلة أضمن لبقائك تحت سقف منزلى خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة ، خيرا من قولك لى بأن شقاء والدك وعذابه سيتبعان ذلك !.. أما عن وعدك بالزواج من لينتون ، فاننى ساعنى بالوفاء به ، لانك لن تبرحى هذا المكان حتى ينجز هذا الوعد !

فصاحت كاثرين وهى تبكى بحرارة :

ـ أرسل ايلين إذن لتخبر ابى باننى سالمة ، أو اعقد زواجى الآن !.. يا لأبى المسكين !.. سوف يظن أننا فقدنا يا ايلين !.. فماذا نفعل الآن ؟..

فأجاب هيثكليف :

ـ لن يظن شيئا من ذلك !.. وإنما سيظن انكما مللتما خدمته المتواصلة ، فذهبتما بعيدان تنشدان شيئا من المتعة ! .. وليس فى وسعك ان تنكرى انك دخلت منزلى بملء اختيارك ، احتقارا لاوامره التى تحرم عليك دخوله !.. ومن الطبيعى حقا ، أن تنشد فتاة فى مثل سنك ، بعض المتعة والترفيه ، وان تسأم خدمة رجل مريض ، ليس إلا والدها !

.. لقد انتهت أسعد ايامه ، يا كاثرين ، يوم بدات ايامك فى الحياة .. واحسبه كان يلعنك لقدومك إلى العالم (أما أنا فقد لعنتك حقا) ، فلا بأس بأن يلعنك وهو يغادره !.. وسأشاركه هذه اللعنة .. اننى اكرهك !.. ومالى لا أفعل ؟.. ابكى وامعنى فى البكاء ما شئت ، فسوف يكون البكاء تسليتك العظمى بعد الآن ، كما يبدو لى !.. إلا إذا كان لينتون عوضا كافيا لاية خسارة اخرى !.. ويبدو أن والدك الملهم كان يراه كذلك ، فان خطاباته المليئة بالنصائح والعزاء كانت تسلينى كثيرا .. وفى خطابه الأخير ، كان يوصى « جوهرتى » بأن يعنى « بجوهرته » ، وان يكون رفيقا بها عندما ينالها !.. العناية والرفق .. إنها وصايا خليقة بالآباء حقا !.. ولكن لينتون فى حاجة إلى كل رصيده من العناية والرفق ليسبغهما على نفسه .. وفى وسع لينتون ان يؤدى دور الطاغية الصغير ، فيجيد اداءه !.. انه خليق بان ينهض بتعذيب اى عدد من القطط لو نزعت اسنانها وقلمت مخالبها !.. وسوف يكون فى وسعك ان تقصى على خاله اروع القصص عن رفقه وشفقته ، عندما تعودين إلى منزلك ثانية !

فقلت :

ـ الآن لم تقل إلا صدقا !.. اتمم كلامك ، واشرح خلق ولدك ، واظهرنا على ما فيه من شبه بخلقك .. وارجو عندئذ ان تفكر مس كاثى مرتين قبل ان تتزوج من الوحش المميت !

فاجابنى :

ـ إننى لا أبالى كثيرا بالحديث عن مزاياه الحبيبة الآن ،



فصـــاح هيثكليف وهـــو يدفعهـــا عنـــه فى وحشـــية رهيبـــة
– ابعـــدى أصـــابعك الشبيهـــة بأصـــابع الســـحالى ..

لأنها إما أن تقبله ، أو تبقى سجينة هنا ، وأنت معها ، حتى يموت سيدك .. وفى وسعى أن أحجزكما هنـا ، فى خفاء ، لا يعلم أحد عنكما شيئا .. فاذا شككت فى ذلك فما عليك إلا ان تشجعيها على سحب كلمتها ، وعندئذ تتاح لك الفرصة كى تحكمى بنفسك ..

فقالت كاثرين :

– إننى لن أسحب كلمتى .. سـوف أتزوج منه هـذه الساعة ، إذا سمحت لى بالعودة إلى « ثرشكروس جرانج » بعد ذلك .. انك رجل قاس ، يا مستر هيثكليف ، ولكنك لست شيطانا رجيما !.. ولن ترضى بتدمير سعادتى إلى غير رجعة ، لمجرد شفاء حقدك ، وبدافع من الشر فحسب !.. ولو أن ابى ظن أننى تركته عن عمد ، ثم مات قبل عودتى ، فهل أطيق الحياة بعد ذلك ؟.. لقد كففت عن البكاء ، ولكنى سوف اجثو هنا ، عند قدميك ، ولن اقوم ثانية ، او احول عينى عن وجهك ، حتى تنظر إلى .. كلا .. لا تدر وجهك عنى .. انظر إلى !.. انك لن ترى شيئا يثيرك أو يغضبك .. فأنا لا أبغضك .. ولست غاضبة لأنك لطمتنى .. ألم تحب احدا قط فى حياتك كلها يا عماه ؟.. ابدا ؟.. آه !.. يجب ان تنظر إلى مرة واحدة .. اننى تعسة شقية ، إلى حد لا يسعك معه إلا ان تأسف لحالى وترثى لى !

فصاح هيثكليف وهو يدفعها عنه فى وحشية رهيبة :

– ابعدى أصابعك الشبيهة بأصابع السحالى ، وامشى بعيدا وإلا ركلتك بقدمى !.. اننى افضل ان تحتضننى افعى

عن ان تقربيني !.. وكيف خيل إليك ، بحق الشيطان انك قادرة على خداعى وتملقى ؟.. اننى امقتك .. امقتك !

وكان يهز كتفيه فى استخفاف ، وينفض جسمه كأنما اصابته قشعريرة الاشمئزاز حقا ، ويرتد بمقعده إلى الوراء نافرا .. ونهضت من مجلسى ، وفتحت فمى لابدا سيلا جديدا من السباب ، عندما اخرسنى قبل ان افوه بكلمة ، منذرا باننى سوف اسجن فى إحدى الغرف وحدى إذا نطقت بحرف واحد !

وكان الظلام قد بدا يتكاثف عندما سمعنا اصواتا تتكلم عند بوابة الحديقة ، فاسرع مضيفنا إلى الخارج لا يلوى على شىء .. كان يحتفظ بقدرته على التفكير ، اما نحن فقد شرد فكرنا .. وطال الحديث دقيقتين او ثلاثا ، عاد على اثرها بمفرده ..

وكنت اقول لكاثرين :

ـ لقد ظننته ابن خالك هيرتون .. وليته يعود الآن ، فمن يدرى لعله ينحاز إلى جانبنا ..

فقال هيثكليف ، وقد سمع ما قلته :

ـ إنهم ثلاثة من الخدم حضروا من الجرانج للبحث عنكما .. وكان ينبغى ان تفتحى النافذة وتناديهم !.. ولكنى اقسم

ان هذه الطفلة قد سرها أنك لم تفعلى .. أنها سعيدة لإرغامها على البقاء ، ولا شك لدى فى ذلك ..

فلما علمنا بالفرصة التى اضعناها ، أطلقنا العنان لأحزاننا ، ووجدنا ، كلانا ، فى البكاء متنفسا لآلامنا الحبيسة .. وظل صامتا بلا حراك لا يعترض على نحيبنا حتى بلغت الساعة التاسعة .. وعندئذ أمرنا أن نصعد إلى حجرة زيللا بالطابق العلوى ، عن طريق المطبخ .. فهمست لرفيقتى أن تطيعه ، فربما استطعنا ان نحاول الخروج من نافذتها ، او التسلل إلى إحدى العليات والهرب من كوتها .. ولكن النافذة كانت ضيقة كنوافذ الدور الأرضى ، كما ان الباب المؤدى إلى العليات كان بعيدا عن متناولنا ، لأن الحجرة اوصدت علينا من الخارج كما حدث فى الحجرة السفلى ..

ولم ترقد واحدة منا .. اما كاثرين فقد اخذت موقفها بجوار النافذة ، وظلت تحدق النظر منها وترقب الصباح فى لهفة .. وكان جوابها الوحيد على محاولاتى المتعددة باقناعها بان تستريح قليلا ، تنهدا عميقا حسبت صدرها قد انشق منه .. واما انا فقد جلست على احد المقاعد ، وجعلت أتارجح فيه إلى الامام وإلى الخلف ، ورحت أنحى باللوم العنيف على نفسى ، لما فرط منى من الإخلال بواجبى مرات عديدة . وبدا لى عندئذ ان كل ما اصاب مخدومى من شقاء ومتاعب ، إنما كان مبعثه تقصيرى هذا .. وانى اعلم الآن أن الأمر لم يكن

كذلك حقا ، ولكن ذلك هو ما سيطر على خيالى فى تلك الليلة المشئومة حتى لقد خيل إلى أن هيثكليف نفسه كان أقل جريرة منى !

وحضر إلينا هيثكليف فى الساعة السابعة ، فسأل إن كانت مس لينتون قد استيقظت ، فانطلقت تعدو نحو الباب وهى تجيب : « نعم .. نعم ! »

وعندئذ فتح الباب ، وجذبها إلى الخارج وهو يقول : « تعالى إذن ! »

فنهضت لأتبعها ، ولكنه أوصد الباب دونى ، ولما طلبت إليه أن يطلق سراحى ، أجاب :

ـ صبرا .. صبرا .. سوف أرسل لك طعام الإفطار بعد لحظة !

ولكنى رحت أطرق الباب فى عنف ، وأحرك المزلاج الداخلى فى صخب .. وسألته كاثرين عن سبب استمرار حبسى ، فأجاب بأن على أن أحتمل ذلك ساعة أخرى .. ثم تركانى وانصرفا معا ..

وصبرت على السجن ساعتين أو ثلاثا ، وأخيرا سمعت وقع خطوات ، لم تكن خطوات هيثكليف ، ثم صوتا يقول :

ـ لقد أحضرت لك شيئا من الطعام .. افتحى الباب ..

فأطعت فى لهفة ، وعندئذ رأيت هيرتون محملا بطعام يكفى لغذائى يوما كاملا . ودفع بالصفحة بين يدى قائلا : « خذى ! .. » .

فبدأت أقول :

ـ ابق معى دقيقة واحدة ..

ولكنه صاح فى وجهى : « كلا ! » .

ثم تراجع إلى الوراء ، وهو يوصد الباب من الخارج ، غير مكترث للتوسلات التى تدفقت من فمى كى أبقيه معى قليلا ..

وظللت حبيسة اليوم بأسره ، والليلة التالية ، ثم ليلة أخرى ، فثالثة .. خمس ليال وأربعة أيام قضيتها فى سجنى ، لا أرى أحدا غير هيرتون ، مرة واحدة فى كل صباح .. وكان مثال السجان الأمين ، متجهما صارم الأسارير ، يصيبه الخرس والصمم أمام أية محاولة منى لإثارة الشعور بالعدالة أو الرحمة فى نفسه ..

* * *

الفصل الثامن والعشرون

فى صباح اليوم الخامس ، أو بالأحرى بعد الظهر ، سمعت خطوات مختلفة عن خطى هيرتون تقترب من زنزانتى .. خطى أخف وقعا وأقصر مدى .. وفى هذه المرة دخل القادم الحجرة ولم يكتف بالوقوف خارجها .. كانت « زيللا » مديرة المنزل ، متدثرة بشملتها القرمزية ، ومغطية رأسها بقلنسوة حريرية سوداء ، وقد علقت فى ذراعها سلة من أغصان الصفصاف ..

وما كادت ترانى حتى هتفت تقول :

ـ آه يا إلهى !.. مسز دين !.. أهذه أنت حقا ؟.. حسنا !.. إن الناس يتحدثون عنك فى « جيمرتون » ، وظللت أعتقد أنك غرقت فى مستنقع « الجواد الأسود » ، والآنسة معك ، حتى أخبرنى السيد بأنهم عثروا عليك وأنه أسكنك هنا !.. ولكن .. لابد أن تكونى قد ارتقيت جزيرة وسط المستنقع ، فلم تغرقى !.. وكم من الزمن لبثت فى هذه الورطة ؟.. هل السيد هو الذى أنقذك يا مستر دين ؟ .. ولكن عجبا !.. أراك لم يصبك الهزال والنحول !.. ويبدو أنك لم تقاسى كثيرا ، أليس كذلك ؟

فأجبتها :

ـ إن سيدك وغد عريق !.. ولكنه سوف يدفع الثمن غاليا .. انه لم يكن فى حاجة إلى اختلاق هذه الرواية ، فلن يلبث الناس حتى يعرفوا كذبها ..

ـ ماذا تعنين ؟. انها ليست روايته ، بل هى حديث الناس فى القرية .. فهم جميعا يقولون انك فقدت فى المستنقع .. وعندما عدت من أجازتى ، ذهبت إلى ايرنشو ، وقلت له : « لقد وقعت أشياء عجيبة منذ ذهابى يا مستر هيرتون !.. وانه لمصير محزن لتلك الفتاة اللطيفة ، ومسز دين الطيبة ! » .. فراح يحملق فى وجهى حتى ظننته لم يسمع شيئا عن الأمر ، وهكذا أخبرته بما تقول الشائعات .. وكان السيد يصغى إلى ، فما لبث أن ابتسم وقال : « إن كانتا قد سقطتا فى المستنقع يا زيللا ، فانهما خارجه الآن !.. ان نللى دين تقيم فى حجرتك هذه اللحظة ، وفى وسعك أن تطلبى إليها الرحيل ، عندما تصعدين إليها .. هاك المفتاح !.. كانت رأسها مليئة بالوحل والماء الآسن ، وأرادت أن تجرى عائدة إلى منزلها ، وقد أصابها الخبال ، ولكنى أرغمتها على البقاء هنا حتى تستعيد حواسها الضائعة !.. والآن يمكنك أن تطلبى إليها الذهاب إلى « الجرانج » على الفور ، إذا كانت قادرة على السير ، وأن تبلغهم رسالة منى ، هى أن السيدة الشابة سوف تلحق بها فى الوقت المناسب لحضور جنازة السيد ! »

فهتفت فى أنفاس لاهثة :

ـ آه !.. زيللا !.. زيللا !.. ان مستر ادجار لم يمت أليس كذلك ؟..

ـ كلا .. كلا .. اجلسى واهدئى أيتها السيدة الطيبة !.. انك ما زلت مريضة إذن ؟.. كلا .. انه لم يمت وفى رأى

الدكتور كينيث انه قد يعيش يوما آخر .. لقد قابلته فى الطريق وسألته عنه ..

ولكنى ، بدلا من ان اجلس ، اختطفت ثيابى الخارجية ، وهبطت السلم على عجل ، إذ وجدت الطريق خاليا .. فلما ولجت حجرة الجلوس ، رحت أتطلع حولى باحثة عن شخص أسأله عن كاثرين .. وكان المكان مليئا بأشعة الشمس الدافئة ، والباب مفتوحا على مصراعيه .. ولكنى لم ار أحدا هناك ، او هكذا خيل إلى فى بادىء الأمر ، لاننى عندما استدرت مترددة بين الرحيل من فورى ، او العودة للبحث عن سيدتى ، استرعى انتباهى سعال خفيف ينبعث من ناحية المدفأة .. كان لينتون مضطجعا فوق الأريكة ، وحده فى الحجرة كلها ، يمتص عصا من (السكر نبات) ، ويتبع حركاتى بعينين خاملتين .. فسألته فى صرامة وشدة : « اين مس كاثرين ؟ » .. وقد خيل إلى اننى إذا افزعته ، وهو بمفرده ، فسوف يبوح لى بمعلوماته على الفور .. ولكنه ظل يمتص حلواه فى براءة ، دون ان يجيب ، حتى قلت :

ـ هل رحلت ؟

عندئذ اجابنى قائلا :

ـ كلا .. انها فى الطابق العلوى ، ولن ترحل من هنا .. إننا لن نسمح لها بذلك !

فصحت به :

ـ لن تسمح لها أيها الأبله الصغير !.. ارشدنى إلى حجرتها فى الحال وإلا جعلتك تصرخ صراخا حادا !

ـ بل إن أبى هو الذى سيجعلك تصرخين إذا ذهبت إلى هناك .. وهو يقول اننى لا يجب ان اكون لينا مع كاثرين ، فهى زوجتى ، ومن العار ان ترغب فى هجرى !.. ويقول أيضا انها تمقتنى ، وتتمنى ان أموت ، حتى ترث اموالى .. ولكنها لن تنالها !.. ولن تعود إلى منزلها !.. لن تعود أبدا ! .. وفى وسعها ان تبكى وان تمرض ما شاء لها البكاء والمرض !

وعاد إلى شغلته السابقة فى امتصاص حلواه ، وقد اغلق جفونه كأنما ينوى أن يستسلم للنعاس .. وعندئذ عمدت إلى الملاينة ، فقلت :

ـ هل نسيت يا سيد لينتون رفق كاثرين بك فى الشتاء الماضى ، عندما كنت تؤكد لها انك تحبها ، وعندما كانت تحضر لك الكتب ، وتشدو لك بالأغانى ، وتأتى ـ اكثر من مرة ـ وسط العواصف والثلوج لتراك ؟.. لقد كانت تبكى فى مرارة ، عندما يفوتها الحضور يوما واحدا ، لأن ذلك سوف يضايقك .. وقد شعرت ، فى ذلك الوقت ، انها كانت مثال الطيبة والحنو معك ، ومع ذلك فانت تصدق الآن اكاذيب والدك التى يلقى بها إليك ، برغم علمك بانه يكرهكما معا ، وتنحاز إلى جانبه ضدها .. يا له من عرفان بالجميل ، يا سيد لينتون !.. أليس كذلك ؟

فتدلى ركن فمه ، واخرج الحلوى من بين شفتيه ، بينما تابعت القول :

ـ هل تراها حضرت إلى « مرتفعات ويذرنج » لانها تمقتك ؟.. وهلا فكرت فى الأمر بنفسك ؟.. أما عن أموالك ،

فانها لا تعلم أنك سوف تقتنى شيئا .. ثم تقول انها مريضة ، ومع ذلك تتركها وحدها فى الطابق العلوى من منزل غريب عليها .. أنت الذى طالما شعرت بقسوة الاهمال !.. كان فى وسعك أن ترثى لآلامك ومتاعبك ، وكانت هى ترثى لهما كذلك .. أما الآن فانك لا ترثى لآلامها ولا تريد أن تأخذك الشفقة عليها !.. اننى أذرف الدموع يا سيد هيثكليف كما ترى ـ أنا العجوز المتهالكة التى لا تزيد عن مجرد خادم ـ بينما تدخر أنت كل عبرة من دموعك لتذرفها على نفسك ، بعد أن تظاهرت بكل هذا الحب نحوها ، وكان الأولى بك أن تعبدها عبادة ، ثم ترقد هنا هادئا ناعم البال !.. آه !.. يا لك من غلام أنانى حجرى الفؤاد !

فأجاب ساخطا :

ـ إننى لا أستطيع البقاء معها ، وإلا ما بقيت وحدى .. ولكنها لا تفتأ تبكى حتى لا أستطيع الاحتمال .. وهى لا تكف ولا تستريح من البكاء ، مهما هددتها باستدعاء والدى .. بل لقد دعوته مرة ، فأنذرها بانه سوف يكتم أنفاسها ، إذا لم تخلد إلى السكون .. ولكنها بدأت من جديد ، بمجرد انصرافه من الغرفة ، تئن وتنتحب الليل بطوله ، برغم أننى ضقت بها ذرعا فصحت بها أن تسكت حتى أستطيع النوم !

ورأيت ذلك المخلوق التعس عاجزا عن الاشفاق على ابنة خاله ، والرثاء لعذابها الفكرى ، فسألته :

ـ هل مستر هيثكليف خارج الدار ؟

ـ إنه فى الفناء ، يتحدث إلى الدكتور كينيث .. وهو يقول ان خالى يعانى سكرات الموت حقيقة هذه المرة !.. وذلك يسرنى كثيرا لاننى سوف اصبح سيد « الجرانج » بعده !.. لقد كانت كاثرين تتشدق دائما بالحديث عنه كأنه « منزلها » .. كلا .. انه ليس ملكها .. انه ملكى أنا .. ويقول أبى ان كل شىء تقتنيه قد أصبح لى .. كتبها اللطيفة جميعا صارت كتبى .. لقد عرضت على أن تهبنى كتبها ، وطيورها الجميلة ، ومهرها « مينى » ، إذا احضرت لها مفتاح الحجرة وتركتها تخرج من الدار .. ولكنى اخبرتها بانه لم يعد لها ما تهبه أو تمنحه ، لأن كل ما لها أصبح ملكى !.. وعندئذ انخرطت فى البكاء ، ثم امسكت بصورة صغيرة تعلقها فى عنقها ، وقالت إن هذه لن تكون لى قط .. ورأيت صورتين ، فى إطار ذهبى انيق ، إحداهما لأمها ، والثانية لخالى ، عندما كانا فى مقتبل العمر .. لقد حدث ذلك بالأمس فقط ، فقلت لها انهما ايضا قد أصبحتا ملكى ، وحاولت أن انتزعهما منها .. ولكن الخبيثة لم تمكنى من اخذهما ، ودفعتنى دفعة آذتنى .. فصحت مستنجدا ، وذلك يفزعها كثيرا ، فلما سمعت وقع اقدام ابى ، حطمت مفصلات الرصيعة وقسمتها اثنين ، ثم اعطتنى صورة امها وحاولت إخفاء الصورة الأخرى .. ولكن ابى سأل عن جلية الخبر ، فشرحته له .. وعندئذ أخذ منى الصورة التى كانت معى ، وامرها بأن تسلم الأخرى لى .. ولكنها ابت ، فضربها ـ هو ـ حتى القى بها على الأرض ، وانتزع الصورة من السلسلة وسحقها تحت قدمه ..

فقلت له ، وانا اكبت مشـــاعرى ، حتى استدرجه إلى الكلام :

ـ وهل سرك ان تراها تضرب امامك ؟

ـ لقد اغمضت جفونى !.. وانى اغمض جفونى دائمـا كلما رأيت ابى يضرب كلبا او حصانا ، لانه يفعل ذلك فى شدة وعنف !.. ومع ذلك فانى سررت فى بادىء الامر ، ورأيتها تستحق العقاب لانها دفعتنى بيدها .. ولكنها ، بعـد ان انصرف ابى ، اخذتنى إلى النافذة ، وارتنى قطعا طويلا فى شدقها من الداخل ، تجاه اسنانها ، كما ارتنى فمها الملىء بالدماء .. واخذت تجمع اشتات الصورة الممزقة ، ثم مضت فجلست ووجهها إلى الحائط ، ولم تخاطبنى بكلمة واحدة منذ تلك اللحظة !.. وخيل إلى ، فى بعض الاحيان ، انهـا لا تستطيع النطق من آلام فمها .. وما كنت احب ان افكر فى ذلك ، ولكنها مخلوقة شريرة لانها لا تكف عن البكاء باستمرار .. وهى تبدو من الشحوب والضراوة بحيث اصبحت اخافها واخشـاها !

ـ وهل فى وسعك ان تحصل على مفتاح الحجرة كلمـا اردت ؟

ـ نعم .. عندما اصعد إلى الطـابق العلوى .. ولكنى لا استطيع الصعود الآن ..

ـ فى اية حجرة هى ؟

نصاح فى وجهى :

ـ آه ! .. لن اخبرك بمكانها قط .. إنه سرنا الذى لن يعرفه احد ، حتى هيرتون وزيلا لن يعرفاه !.. والآن اذهبى عنى ، فقد اتعبتنى .. اغربى عن وجهى !

ثم ادار وجهــه نحو مسند الاريكة ، واغمض عينيه من جديد ..

وفضلت ان ارحل بغير إمهال ، دون ان انشد لقاء مستر هيثكليف ، فاحضر نجـدة من « الجرانج » لإنقاذ سيدتى الشابة .. فلما وصلت إلى هناك كانت دهشـة زملائى الخدم لرؤيتى بالغة ، وكذلك فرحتهم بعودتى .. وعندما سمعوا ان سيدتهم الصغيرة بخير ، كاد اثنان او ثلاثة منهم ان ينطلقوا مسرعين ليصيحوا بالنبأ السعيد امام حجرة مستر ادجار ، ولكنى سبقتهم لحمل الخبر إليه بنفسى .. وشد ما ارتعت لمـا وجدته من تبدل حالته ، وما اصابه من تغيير ، حتى فى هـذه الايام القلائل !.. كان يرقد فى انتظار الموت ، اشبه بصورة من الحزن والاستسلام .. وكم كان يبدو فى ربيع الشباب عندئذ .. فعلى الرغم من انه كان فى التاسعة والثلاثين من عمره ، إلا ان المرء كان يخاله اصغر من ذلك بعشر سنين على الاقل .. وكان يفكر فى كاثرين ، لانه غمغم هاتفا باسمها ، فلمست يده فى رفق ، وهمست قائلة :

ـ كاثرين قادمة إليك ايها السيد العزيز .. انها على قيد الحياة ، وفى حالة طيبة ، وارجو ان تكون هنا الليلة ..

وسرت الرعدة فى بدنى عندما شهدت أول آثار هذا النبأ عليه .. فقد قام فى فراشه نصف قيام ، وراح يتلفت حواليه فى لهفة ولوعة ، ثم هوى فى فراشه مغشيا عليه .. وما ان افاق من غشيته حتى رويت له زيارتنا الإجبارية «للمرتفعات» ، وسجننا هناك .. قلت له إن هيثكليف ارغمنى على الدخول عنوة ، وهو ما لم يكن صحيحا كل الصحة .. ولم اتكلم إلا القليل ضد لينتون ، كذلك لم اصف له مسلك ابيه الوحشى .. فقد كانت نيتى الا اضيف المزيد من المرارة ـ لو استطعت ان أحول دون ذلك ـ إلى كأسه الطافحة ..

واستشف سيدى ان هدف عدوه ـ او احد اهدافه ـ كان يرمى إلى ضمان اموالها الخاصة لابنه ، فضلا عن الضيعة ، او بالأحرى ضمانها لنفسه !.. أما لماذا تعجل الأمر ، ولم يصبر حتى وفاته ، فقد كان لغزا استعصى على سيدى حله .. لأنه كان يجهل انه وابن اخته يوشكان أن يفارقا الدنيا معا ، كأنهما على ميعاد !.. ومهما يكن من أمر فقد راى من الأفضل ان يغير وصيته ، وبدلا من ان يترك ثروة كاثرين الخاصة تحت تصرفها المطلق ، فقد عزم على ان يضعها بين ايدى وكلاء يشرفون على استغلالها ، ويعطون كاثرين ريعها ما دامت على قيد الحياة ، ثم لأبنائها من بعدها إذا رزقت بأولاد .. وبهذه الطريقة لا تؤول إلى مستر هيثكليف إذا مات ابنه لينتون ..

وما ان تلقيت اوامره ، حتى أرسلت رجلا لإحضار المحامى ، كما أوفدت اربعة غيره ، مزودين بالأسلحة الكافية ، ليطلبوا

سيدتى الصغيرة من سجانها .. وطالت غيبة الفريقين إلى وقت متأخر ، وكان الخادم الأول هو السابق فى العودة ، فقال ان مستر جرين المحامى لم يكن بمنزله عندما وصل إليه ، فاضطر إلى البقاء ساعتين فى انتظار عودته .. وأن مستر جرين اخبره بأن لديه مهمة صغيرة فى القرية يتعين عليه اداؤها ولكنه سوف يكون فى « ثرشكروس جرانج » قبل الصباح .. كذلك عاد الرجال الأربعة وحدهم ، قائلين إن كاثرين مريضة ، بل شديدة المرض إلى حد لا يسمح لها بالخروج ، وان مستر هيثكليف لم يسمح لهم برؤيتها .. وقد اهلت اللوم والتأنيب على رؤوس اولئك الحمقى لتصديقهم هذه الرواية الكاذبة التى لم اكن استطيع نقلها إلى السيد ..

وصممت على أن آخذ فرقة كاملة إلى « المرتفعات » عند الفجر ، فأثير عاصفة صاخبة ، ما لم تسلم لنا الأسيرة فى هدوء .. فقد نذرت لله ان يراها والدها قبل موته ، ثم نذرت مرة ثانية ـ لو أدى الأمر ـ ان اقتل ذلك الشيطان على عتبة داره وهو يحاول منعها !

ومن حسن الحظ انى كفيت مؤونة الرحلة والمتاعب !.. فقد نزلت إلى الطابق الأرضى فى الساعة الثالثة لأحضر إبريقا من الماء ، وكنت احمله فى يدى واجتاز الردهة عندما سمعت على الباب الأمامى طرقة حادة روعتنى وجعلتنى اقفز مجفلة .. ولكنى قلت اطمئن نفسى : « آه !.. انه جرين .. لا أحد يأتى الآن سوى جرين » .. ثم مضيت فى طريقى عازمة على

ان ارسل شخصا آخر ليفتح الباب .. ولكن الطرق تكرر فى إلحاح ، دون أن يكون حادا او عاليا .. فوضعت الإبريق على حافة سياج الدرج ، واسرعت افتح الباب بنفسى .. وكان قمر الخريف مشرقا يسطع بضيائه فى الخارج .. ولم اجد المحامى امامى .. بل كانت سيدتى الصغيرة المحبوبة هى التى اندفعت تحيط عنقى بذراعيها وهى تنتحب هاتفة :

ـ ايلين .. ايلين .. اما يزال ابى على قيد الحياة ؟

فصحت :

ـ نعم .. نعم يا ملاكى ، انه حى يرزق .. شكرا لله إذ اعادك إلينا سليمة ثانية ..

وكانت تريد ان تهرع إلى الطابق العلوى ، حيث حجرة مستر لينتون ، وهى على حالها من الأنفاس المبهورة .. ولكنى ارغمتها على الجلوس وسقيتها جرعة من الماء ، وغسلت وجهها المتقع ، وتغاليت فى تجفيفه بمرولتى حتى بعثت فيه طيفا من التورد .. وقلت لها بعد ذلك اننى يجب ان اذهب إليه اولا فاخبره بوصولها .. وتوسلت إليها أن تقول له انها سوف تكون سعيدة مع هيثكليف الصغير .. فحملقت فى وجهى مشدوهة ، ولكنها سرعان ما ادركت لماذا نصحت لها بالكذب ، واكدت لى أنها لن تشكو من شىء ..

ولم يكن فى طاقتى ان أحتمل مشهد اللقاء بينهما ، فوقفت خارج باب الحجرة زهاء ربع ساعة ، ثم غالبت ضعفى

وتسللت قريبا من الفراش .. ومع ذلك رأيت كل شىء هادئا يحوطه الجلال .. كان يأس كاثرين صامتا كفرحة أبيها .. كانت تسنده ، وفى اساريرها مسحة من الهدوء الظاهرى .. وكان يثبت انظاره فوق محياها ، وقد اتسعت عيناه سرورا ونشوة ..

وقد لفظ انفاسه الأخيرة ، يا مستر لوكوود ، فى سلام ودعة .. قبل وجنتها ، ثم غمغم يقول :

ـ إننى ذاهب إليها .. وسوف تأتين إلينا انت الأخرى ، يا طفلتى المحبوبة !

وعندئذ سكن جسده ، فلم يتحرك او ينطق بعدها ، ولكن بقيت فى عينيه تلك النظرة الذاهلة الوضاءة ، حتى توقف نبضه فى خفاء ، وفاضت روحه فى سكينة وسلام .. فلم يكن احد ليستطيع أن يتبين اللحظة التى مات فيها على وجه التحديد ، إذ انقضى كل شىء دون ان يعانى عذاب النزع الأخير !

وسواء اكانت كاثرين قد استنفدت كل ما لديها من دموع ، أم كان حزنها من العمق بحيث حال دون انسكابها ، فقد جلست متحجرة العينين حتى مطلع الشمس .. وظلت جالسة حتى الظهر ، وكان بودها لو تبقى مستغرقة فى احزانها بجوار فراش الموت ، لولا أن الححت عليها فى أن تقوم لتنال قسطا

من الراحة .. وحسنا فعلت ، إذ افلحت فى إخراجها من الغرفة ، فما كاد يحين موعد الغداء حتى ظهر المحامى ، بعد أن ذهب إلى « مرتفعات ويذرنج » ليتلقى التعليمات فيما يكون عليه مسلكه .. لقد باع الشقى نفسه إلى مستر هيثكليف ، وكان ذلك سبب توانيه عن تلبية دعوة سيدى له .. ومن حسن الحظ أن شيئا من الأمور الدنيوية لم يطرأ على فكر السيد ، فيزعجه ، بعد سعادته بمقدم ابنته ..

واخذ مستر جرين على عاتقه أن يأمر وينهى فى كل شيء وكل إنسان فى المنزل !.. وانذر الخدم جميعا ، ما عداى ، بالفصل من الخدمة .. وكان بوده أن يذهب بسلطته المفوضة إلى حد الإلحاح فى عدم دفن ادجار لينتون بجوار زوجته ، بل فى المعبد بين اسرته .. ولكن وصية سيدى كانت قائمة لتحول دون ذلك ، فضلا عن احتجاجى الصاخب على أى إخلال بما تضمنته .. أما كاترين ، مسز لينتون هيثكليف الآن ، فقد سمح لها بالبقاء فى « الجرانج » حتى يفارقه جثمان أبيها ، الذى أعدت الترتيبات لتشييع جنازته على عجل ..

وعلمت منها أن شدة حزنها ولوعتها قد حفزت لينتون إلى المجازفة بإخلاء سبيلها ! .. كانت قد سمعت جدال الرجال الذين بعثت بهم ، عند باب المنزل ، وادركت ما يرمى إليه هيثكليف بجوابه لهم ، فدفعها ذلك إلى حالة من اليأس الجنونى .. وكان لينتون قد نقل إلى البهو الصغير فى الطابق



وعندئذ سكن جسده ، فلم يتحرك أو ينطق بعدها ، ولكن بقيت فى عينيه تلك النظرة الذاهلة الوضاءة ..

العلوى على اثر انصرافى ، فتملكه الفزع إذ رآها على هذه الحال ، حتى حدا به إلى البحث عن المفتاح وإحضاره قبل ان يصعد والده .. وكان من الدهاء بحيث راح يوصد القفل ويفتحه مرة بعد مرة ، إلى ان تركه مفتوحا فى النهاية .. فلما حان موعد نومه ، توسل إلى ابيه ان يسمح له بالنوم مع هيرتون ، فاجيب إلى رغبته لأول مرة .. وتسللت كاثرين قبل انبلاج الصبح ، ولكنها لم تجرؤ على الخروج من الباب الرئيسى خشية ان تثير الكلاب الجاثمة فى الردهة ضجة تفضحها ، وإنما راحت ترتاد الحجرات الخالية واحدة بعد الاخرى تفحص نوافذها .. فلما بلغت حجرة أمها أخيرا ، استطاعت لحسن الحظ ان تخرج من نافذتها بسهولة ، وان تهبط إلى الأرض مستعينة بشجرة الشربين الملاصقة للنافذة .. وقد لقى شريكها جزاءه لمساعدتها على الفرار ، برغم كل ما احتال به من حجج واهية !

* * *

الفصل التاسع والعشرون

جلست مع السيدة الصغيرة فى المكتبة ، مساء يوم تشييع الجنازة ، مستغرقتين فى التفكير ، فى حزن وأسى ـ يصحبهما اليأس عند كاثرين ـ فى الخسارة الفادحة التى ألمت بنا ، متخبطتين فى تكهناتنا عن المستقبل القاتم العبوس ..

وقد اتفق رأينا على ان خير مصير يمكن ان ينتظر كاثرين ، هو احتمال السماح لها بمتابعة إقامتها فى « الجرانج » ، وعلى الأقل أثناء حياة لينتون ، على أن يسمح له بالانضمام إليها هناك ، وان ابقى معهما فى وظيفتى كمدبرة للمنزل ..

ولكن هذا الوضع كان يبدو املا بعيد التصديق ، لما فيه من راحة لنا وملاءمة لرغباتنا .. ومع ذلك كنت ما ازال ارجو وأؤمل .. وبدات ابدى ابتهاجى للاحتفاظ بمنزلى ، ووظيفتى ، وفوق كل شىء بسيدتى الصغيرة المحبوبة ، عندما تدم احد الخدم ـ من الذين انذروا بالفصل ، وإن لم يكن قد غادر المنزل بعد ـ مندفعا نحونا ، معلنا أن « الشيطان هيثكليف » يعبر الفناء مقبلا نحو المنزل ، ويسألنا إن كان ينبغى أن يغلق الباب فى وجهه ؟

ولو كنا من الجنون بحيث نامره باتخاذ هذا الاجراء ، لما اتسع لنا الوقت لذلك .. فان هيثكليف لم يعن بالشكليات كالطرق على الباب ، أو إرسال من يستأذن له علينا .. فقد كان سيد الدار ، ومن ثم أضفى على نفسه ميزات سيد الدار

من شق طريقه فيها قدما ، ودون ان يلقى باية كلمة .. وقد هداه صوت الخادم إلى المكتبة ، فدخل علينا وطرد الرجل ثم أغلق الباب !

كانت عين الحجرة التى استقبل فيهـا ، ضيفا ، منـذ ثمانية عشر عاما .. وكان القمر نفسه يسترق الخطى من خلال النافذة .. بل إن المنظر الخارجى ، وقد اضفى الخريف عليه طـابعه ، كان اشبه بمثيله فى تلك الليلة البعيدة .. ولم نكن قد اوقدنا الشموع بعد ، غير ان الحجرة كلها كانت واضحة المعالم .. حتى الصور المعلقة على الجدران .. صورة راس مسز لينتون الجميل ، وراس زوجها الذى يشع رقة وبهاء .. وتقدم هيثكليف نحو المدفاة .. حتى هو لم يغيره الزمن إلا قليلا .. كان الرجل نفسه ، وإن ازداد وجهه شحوبا وصرامة ، وازداد جسمه بدانة نوعا ما .. ذلك كل ما تغير فيـه ..

فلما راته كاثرين ، نهضت واقفة واندفعت تهم بالخروج ، ولكنه امسك بذراعها وقال :

ـ قفى !.. لا فرار لكَ بعد الآن !.. وإلى اين تريدين الذهاب ؟.. لقد اتيت لآخذك إلى منزلك ، وارجو ان تكونى بعد ذلك ابنة مطيعة تقدرين واجباتك ، ولا تشجعين ابنى على مزيد من العصيان !.. لقد حرت كيف اعاقبه عندما كشفت دوره فى خطة فرارك ، فهو ارق من نسيج العنكبوت ، وقرصة واحدة قد تقضى عليه !.. ولكنك سترين من شكله

انه قد تلقى ما يستحقه .. فقد حملته إلى الطابق الأرضى ذات مساء ، وكان ذلك اول امس ، واجلسته فى مقعده ، ولم امسه بيدى بعد ذلك قط !.. ولكنى اخرجت هيرتون من الحجرة ، وبقينا فيها وحدنا .. وبعد ساعتين ناديت جوزيف ليحمله إلى حجرة ثانية .. ومنذ ذلك الحين اصبح حضورى اشد إرهابا له من الاشباح المخوفة !.. واحسبه يرانى كثيرا ، وإن لم اكن قريبا منه ، فقـد أخبـرنى هيرتون انه يستيقظ اثناء الليل ، ويظل يصرخ ساعة بأسرها ، ويناديك لتحميه منى !.. وسواء أكنت تحبين زوجك الغالى ، ام لا تحبينه ، فلابد لك من الحضور إلى البيت ، لأنه الآن من شانك ، وإنى اتنازل لك عن كل ما يهمنى فيه !

فتدخلت لأقول له فى ضراعة :

ـ لمـاذا لا تدع كاثرين تستمر فى الإقامة هنا وترسل السيد لينتون ليعيش معها ؟.. انك لن تشعر بفقدهمـا ما دمت تكره كليهما .. انهما لن يكونا إلا تنغيصا يوميا لقلبك الذى لا يشبه قلوب البشر فى شىء ..

فأجاب :

ـ إننى ابحث عن مستاجر « للجرانج » .. ثم انى أريد اولادى حولى لأطمئن عليهم .. وفضلا عن ذلكَ فان هذه الفتاة مدينة لى بخدمتها لقاء طعامها !.. ولن أدعهـا تعيش فى رفاهية وكسل بعد موت لينتون !.. هيا اسرعى واستعدى للذهاب معى الآن ، ولا تلجئينى إلى إرغامك على ذلك ؟

فقالت كاثرين :

ـ سوف أذهب ، فان لينتون هو كل ما ينبغى ان احبه فى هذا العالم .. ومع انك بذلت كل ما فى وسعك لتنفره منى ، وتنفرنى منه ، فانك لا تستطيع الآن أن تجعل احدا منا يمقت الآخر .. وانا اتحداك ان تسىء إليه عندما اكون معه ، واتحداك أن تستطيع إخافتى !

فأجاب هيثكليف :

ـ يا لك من بطلة متباهية !.. ولكنى لا احبك إلى الحد الذى يجعلنى أسىء إليه بسببك .. انك انت التى ستجنين ثمرة العذاب كله .. ولست انا الذى ساجعله بغيضا إليك ، وإنما هو شعوره الطيب وروحه الحلوة !.. انه يشعر بمرارة الصفراء لفراقك ، وما تبع ذلك من عواقب .. ولا تنتظرى منه الثناء على وفائك النبيل ، فقد سمعته يرسم صورة بهيجة لما يود أن يفعله بك ، لو اوتى مثل ما لى من قوة وبطش .. وها انت ترين ان النية موجودة لديه ، وان ضعفه بالذات هو الذى سوف يجعله يشحذ ذهنه لاستنباط بديل عن القوة والعنف ..

فقالت كاثرين :

ـ إننى أعرف سوء طويته ، فهو ابنك !.. ولكن يسرنى اننى اطيب منه قلبا ، حتى أصفح عن سوء نيته !.. واعرف ايضا انه يحبنى ، ولذلك فاننى احبه .. اما انت يا مستر هيثكليف فلا تجد إنسانا يحبك .. ومهما سببت لنا من

شقاء ، فاننا نجد العزاء والسلوى ، ونشعر بحلاوة الانتقام كلما فكرنا فى أن قسوتك تنبعث من شقائك الذى يفوق شقاءنا .. انك شقى تعس !.. ألست كذلك حقا ؟.. انك وحيد كالشيطان ، حقود مثله !.. لن تجد انسانا يحبك ، او يبكى يوم مماتك .. وما كنت لاتمنى ان اكون فى مكانك ..

كانت كاثرين تتكلم فى شماتة مخيفة .. كانت تبدو كأنما قررت ان تتقمص روح الأسرة التى ستعيش بينها ، وتلتمس السرور من احزان اعدائها ..

فقال حموها :

ـ ستندمين حالا على انك على قيد الوجود ، إذا لبثت واقفة هنا دقيقة اخرى .. اذهبى ايتها الشريرة ، واحضرى متاعك !

فانسحبت فى ازدراء وتشامخ .. وبدأت أرجوه اثناء غيبتها ان يمنحنى مكان زيلا فى « المرتفعات » ، على أن اتنازل لها عن مركزى هنا .. ولكنه لم يقبل فى ذلك جدالا أو نقاشا ، بل أمرنى بالسكوت .. وعندئذ ، وللمرة الأولى ، أتاح لنفسه ان يلقى لمحة على أرجاء الحجرة ، ونظرة إلى الصور .. وبعد ان تأمل صورة مسز لينتون قليلا ، انبعث يقول :

ـ سوف يكون لى هذا المنزل ، لا لاننى فى حاجة إليه ، وإنما ..

ثم تحول بغتة إلى المدفاة ، وعلى وجهه ما اسميه ابتسامة لاننى لا اجد كلمة افضل اصفه بها ، واستطرد يقول :

ـ سوف احدثك عما فعلته بالأمس .. لقد جعلت اللحاد الذى كان يحفر قبر لينتون يزيل التراب عن غطاء تابوتها ، ثم فتحته !.. وقد خيل إلى لحظة اننى اود البقاء هناك ابدا ! عندما رايت وجهها ـ وهو ما يزال إلى الآن نفس الوجه ! ـ حتى لقى الرجل عناء فى زحزحتى ، بعد ان قال ان هبوب الهواء عليه سوف يفسده .. وعندئذ نزعت المسامير من احد جانبى التابوت ، ثم أعدت الغطاء فوقه .. ولم يكن ذلك الجانب ناحية لينتون ، لعنة الله عليه !.. ليتهم لحموا تابوته بالرصاص !.. ثم رشوت اللحاد ان يزيح تابوتها جانبا ، عندما اوضع هناك بدورى ، وينزلنى بينهما !.. وسوف اعمل على تنفيذ ذلك ، حتى إذا ما اتى شبح لينتون ألينا لم يعرف ايهما تابوتى وايهما تابوتها !

فهتفت قائلة :

ـ إنك ممعن فى الشر يا مستر هيثكليف .. الم تخجل من إزعاج الموتى ؟

ـ إننى لم ازعج احدا يا نللى ! .. وإنما جلبت على نفسى شيئا من الراحة !.. وسوف ازداد راحة وهدوءا الآن ، وستجدين فى هذا ضمانا اقوى لبقائى تحت اطباق الثرى عندما اذهب إلى هناك .. اتزعمين اننى ازعجتها ؟.. كلا .. إنما هى التى كانت تزعجنى وتقض مضجعى ، يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، خلال ثمانية عشر عاما متواصلة بلا انقطاع ، وبغير رحمة او شفقة ، حتى الأمس !.. بالأمس فقط هدأت

واسترحت .. واشتهيت ان انام نومتى الأخيرة بجوار هذه النائمة ، وقد كف قلبى عن الخفقان ، وتجمد خدى ملاصقا لخدها !

ـ ولو كان بدنها قد تحلل إلى تراب ، او ما هو اسوأ من التراب ، فما الذى كنت تشتهيه عندئذ ؟

ـ ان اتحلل معها ، فاكون بذلك اسعد حالا .. هل تظنيننى اخشى اى تبدل من هذا النوع ؟.. لقد توقعت مثل هذا التحول عندما رفعت غطاء التابوت .. ولكنى ازددت سرورا بأن التحلل لن يبدأ حتى اشاطرها مصيرها !.. فضلا عن اننى لو لم اتلق امس ذلك الاحساس المحدد باساريرها الجامدة ، لما فارقنى ابدا ذلك الشعور الغريب .. لقد بدا على نحو عجيب .. فأنت تعلمين اننى كدت اجن بعد موتها ، وكنت ابتهل إليها بلا انقطاع ، من الفجر إلى الفجر ، بان تعيد لى روحها !.. كنت قوى الإيمان بالأشباح ، شديد الاعتقاد بانها تستطيع ان توجد بيننا ، بل وتفعل ذلك فعلا.. وفى اليوم الذى دفنت فيه كاثرين ، انهمر الثلج على غير العادة .. وذهبت فى المساء إلى فناء الكنيسة ، وكانت ليلة باردة كئيبة ، كليالى الشتاء .. كان المكان مقفرا موحشا ، فلم اخش مجىء زوجها الأبله لانه ما كان ليترك جحره ليجول خارجه فى هذه الساعة المتأخرة !.. ولم اخش قدوم غيره ، فما من احد لديه ما يدفعه إلى الحضور إلى هناك .. فلما الفيت نفسى وحدى ، وكنت اعلم ان ستة اقدام من التراب الرخو هى الحاجز الوحيد بينى وبينها ، قلت لنفسى :

« سوف آخذها بين ذراعى ثانية !.. ولو وجدت جسدها باردا فسأقول ان هذه الريح الشمالية هى التى تبعث القشعريرة فى أوصالى ! .. وإذا وجدتها ساكنة بلا حراك ، فانه النوم العميق ، ولا شىء غيره !.. »

« ثم أحضرت معولا من مخزن الكنيسة ، واخذت احفر التراب بكل قواى .. وارتطم المعول بغطاء الصندوق ، فالقيت بالمعول بعيدا ، واكملت الحفر بأصابعى ! .. وبدا الخشب يطقطق حول المسامير بينما كنت احاول نزعها ، واوشكت ان ابلغ غايتى ، عندما خيل إلى بغتة اننى اسمع تنهدا كالأنين ينبعث من شخص ما ينحنى فوقى ، عند حافة القبر !.. فقلت لنفسى : « لو استطعت فقط ان انزع هذا الغطاء ، فليت ذلك الشخص يهيل التراب فوقى فيدفننا معا ! » .. واقبلت على مهمتى فى يأس المستميت ، فاذا بأنين آخر ينبعث ملاصقا لاذنى .. وخيل إلى اننى احس بالأنفاس الدافئة تهب على وجهى ، وتزيح لفحات الهواء القارس .. كنت اعلم انه ما من مخلوق من لحم ودم يقف بجانبى !.. ولكن ارايت إذ تشعرين عن يقين باقترابك من جسم مادى فى الظلام ، دون أن يمكنك تمييزه ؟.. هكذا شعرت عن يقين بوجود كائن هناك ، لا فى القبر تحتى ، وإنما فوق الأرض معى ! .. وعندئذ تدفق من قلبى شعور فجائى براحة عميقة غمرت اوصالى جميعا ، وتخليت من فورى عن عملى الشنيع ، وشعرت بالعزاء يملؤنى ، عزاء صامت مريح .. كنت أشعر بوجودها معى ، وكان هذا الشعور يلازمنى بينما

كنت اردم القبر من جديد ، ويقود خطواتى فى عودتى إلى المنزل .. لك أن تضحكى ، إذا شئت ، ولكنى كنت واثقا من اننى سوف اراها هناك ..

« كنت واثقا من انها معى ، فلم املك إلا ان اتحدث إليها .. فلما بلغت « المرتفعات » اندفعت إلى الباب ملهوفا ، فاذا به موصد من الخارج .. واذكر ان ذلك الوغد هيندلى ايرنشو وزوجتى الحمقاء هما اللذان قصدا منعى من الدخول .. واذكر كذلك اننى تمهلت ريثما اشبعت هيندلى ضربا وركلا حتى تقطعت انفاسه ، ثم اسرعت إلى الطابق العلوى ، إلى حجرتى وحجرتها ، فاخذت اتطلع حولى فى لهفة وحنق .. كنت أشعر بها إلى جانبى .. حتى لقد كدت اراها .. ومع ذلك لم أستطع أن اراها !.. ولابد أن يكون العرق قد انبثق من مسامى دما قانيا ، من لوعة حنينى إليها ، ومن حرارة ضراعتى وتوسلاتى بأن تجود على بنظرة أو لمحة إليها .. ولكنى لم انل واحدة !.. اظهرت نفسها ـ كما كانت كثيرا وهى على قيد الحياة ـ شيطانا رجيما معى .. ومنذ ذلك الحين اصبحت لعبة هذا العذاب الذى يفوق احتمال البشر ، يشتد حينا ويلين حينا آخر .. كنت اعيش فى جحيم من توتر أعصابى على هذا النحو ، ولولا أنها متينة كالأوتار لتخاذلت منذ زمن بعيد ، ولأضحت فى مثل رخاوة أعصاب لينتون !.. وعندما كنت أجلس فى حجرة الجلوس مع هيرتون ، كان يخيل إلى اننى لو خرجت لالتقيت بها .. وعندما كنت اسير وسط البرارى ، كنت احسبنى سألقاها

راجعة إلى المنزل !.. كنت كلما غادرت الدار ، تعجلت عودتى إليها ، ليقينى أنها لابد أن تكون فى مكان ما فى «المرتفعات» !.. وعندما نمت فى حجرتها ، وجدتنى اغلب على امرى واخرج منها إلى غير رجعة .. لم يقر لى قرار او يهنأ لى مضجع هناك .. فما ان اغمض عينى ، حتى كنت احس بها إما خارج النافذة ، او تزيح حواجز خزانة الفراش ، او داخلة إلى الحجرة .. بل كنت احس بها تريح راسها الحبيب على الوسادة بجانب راسى ، مثلما كانت تفعل وهى طفلة .. فكنت افتح عينى لأراها .. وهكذا رحت أفتحهما واغمضهما مائة مرة فى ليلة واحدة ، فكنت لا القى إلا الحسرة وخيبة الأمل .. كانت لى عذابا مقيما !.. وكثيرا ما كان انينى ينبعث عاليا حتى لا اشك فى ان ذلك الوغد العجوز جوزيف اعتقد ان ضميرى قد انقلب فى صدرى عدوا ضاريا !.. اما الآن ، بعد ان رايتها ، فقد سكن روعى وارتحت قليلا .. كان وسيلة غريبة لقتلى والقضاء على ـ لا بوصة بعد بوصة ، بل بمثل قلامة الظفر او حد الشعرة ـ ان تظل تخادعنى وتلوح لى بطيف أمل كالسراب ، خلال ثمانية عشر عاما !»

وسكت مستر هيثكليف ، واخذ يجفف جبينه .. كان شعره ملتصقا به ، وقد بلله العرق .. وكانت عيناه مركزتين على جمرات النار المتقدة فى المدفأة .. اما حاجباه فلم يكونا معقودين كعادته ، بل كانا مرتفعين نحو صدغيه ، مما خفف من جهامة محياه ـ وإن كانا يضفيان عليه مسحة غريبة من الانشغال والقلق ، ومظهرا اليما من التوتر العقلى والاستغراق

فى موضوع واحد .. كان فى الواقع لا يكاد يخاطبنى بحديثه ، فلزمت الصمت ولم ارد عليه .. وكنت لا احب أن اسمعه يتكلم ..

وبعد لحظة وجيزة ، عاد إلى تأمله للصورة ، ثم انزلها واسندها إلى ظهر الأريكة ، ليسهل عليه تأملها فى امعان .. وبينما كان مستغرقا فى هذه المهمة ، دخلت كاثرين واعلنت انها على استعداد للذهاب لا تنتظر إلا اسراج مهرها ..

فقال هيثكليف لى وهو يشير إلى الصورة :

ـ ارسلى هذه لى غدا ..

ثم اردف قائلا لكاثرين :

ـ يمكنك ان تستغنى عن المهر ، فانها امسية جميلة .. ثم انك لن تحتاجى إلى جياد فى « مرتفعات ويذرنج » ، لأن أى رحلة تخرجين فيها ، لن تستخدمى فيها غير قدميك .. هيا بنا !

فغمغمت سيدتى العزيزة الصغيرة :

ـ وداعا يا ايلين !

ثم مالت نحوى تقبلنى ، فاحسست بشفتيها باردتين كالثلج .. واردفت قائلة :

ـ لا تنسى ان تأتى لزيارتى يا ايلين !

فصاح والدها الجديد :

ـ إياك أن تفعلى شيئا كهذا يا مسز دين !.. وعندما أريد ان اتحدث إليك فسوف احضر إلى هنا !.. فلست أحب ان تتجسسى فى منزلى !

وأشار إليها أن تتقدمه ، فأطاعته بعد أن تلفتت إلى الخلف لتلقى نظرة الوداع على الحجرة ، نظرة قطعت نياط قلبى .. ورحت ارقبهما من النافذة وهما يعبران الحديقة ، فرأيت هيثكليف يتأبط ذراع كاثرين برغم معارضتها لذلك فى البداية ، ثم يسوقها فى خطى سريعة واسعة نحو الممر المؤدى إلى الطريق ، والذى ما لبثت أشجاره أن أخفتهما عن ناظرى .

* * *

الفصل الثلاثون

قمت بزيارة « المرتفعات » ولكنى لم ار سيدتى منذ رحيلها عن منزلها .. فقد أمسك جوزيف الباب عندما ذهبت إلى هناك لأسال عنها ولم يسمح لى باجتياز العتبة .. قال ان مسز لينتون معتكفة فى حجرتها ، وأن السيد ليس فى المنزل .. ولولا ان زيلا أخبرتنى عن الحال التى يعيشون عليها ، لظللت أجهل من منهم قد مات ومن ما يزال على قيد الحياة .. وتعتقد زيلا أن كاثرين متعجرفة متعالية ، وحدست من حديثها انها لا تحبها .. فقد طلبت اليها سيدتى الصغيرة ان تساعدها فى شئونها الخاصة ، عند اول عهدها بالدار ، ولكن مستر هيثكليف امر الخادم بأن تعنى بعملها فحسب ، وان تدع زوجة ابنه تنهض بشئونها بنفسها .. واذعنت زيلا لأمره راضية فرحة ، إذ هى امرأة ضيقة الأفق شديدة الأثرة .. ولكن كاثرين اظهرت غضبا كغضب الأطفال لهذا الاهمال ، وقابلته باحتقار زيلا وازدرائها ، وسلكتها ضمن اعدائها ، كأنما أساءت إليها اساءة لا تغتفر .. وقد كان لى مع زيلا حديث طويل منذ نحو ستة أسابيع ، قبل مقدمك ، عندما اجتمعنا ذات يوم فوق البرارى ، وهاك ما أخبرتنى به ..

« كان اول ما فعلته مسز لينتون عند وصولها إلى المرتفعات ان انطلقت مهرعة إلى الطابق العلوى ، دون أن تعنى حتى بالقاء السلام على او على جوزيف ، ثم حبست نفسها فى حجرة لينتون وظلت بها حتى الصباح .. وعندئذ ، بينما كان السيد

وايرنشو يتناولان طعام الافطار ، دخلت عليهما حجرة الجلوس وسألت ، وهى ترتعد ، ان كان من الممكن استدعاء الطبيب ، فان ابن عمتها قد اشتد عليه المرض ..

فأجابها هيثكليف :

ـ اننا نعرف ذلك .. ولكن حياته لا تساوى مليما ، ولن انفق عليه مليما واحدا ..

فقالت : ولكنى لا ادرى ماذا افعل ، وإذا لم الق مساعدة من احد فسوف يموت سريعا .

فصاح بها السيد :

ـ اخرجى من الحجرة ، ولا تدعينى اسمع كلمة اخرى عنه ابدا .. ان احدا هنا لا يبالى بما يصيبه .. فان كنت مهتمة به فاسهرى عليه وتولى تمريضه ، وان كنت لا يهمك امره فأوصدى عليه باب حجرته واتركيه وشأنه !

« وعندئذ بدات ترهقنى بأمره ، فقلت لها اننى رايت من العناء ما يكفينى مع هذا المخلوق النكد ، وان لكل منا مهمتها وعملها الآن ، ومهمتها هى ان تسهر عليه وتخدمه ، فقد أمرنى مستر هيثكليف بان اترك هذا العمل لها ..

اما كيف كانا يعيشان معا ، فهذا ما لا أعرفه .. ولكن يخيل إلى انه جعل حياتها جحيما ، وكان لا يكف عن العويل والأنين بالليل وبالنهار ، وبذلك حرمها الراحة إلا اقل القليل .. وذلك شىء يتبينه المرء من وجهها الشاحب المتقع ، ومن

عينيها المثقلتين المكدودتين .. وكانت احيانا تأتى إلى المطبخ شاردة اللب ، وتبدو كأنما تتلهف على طلب المعونة .. ولكنى لم اكن لأعصى اوامر السيد .. فلست اجرؤ قط على عصيان اوامره يا مستر دين !.. ومع اننى كنت أرى من الخطأ عدم دعوة الدكتور كينيث لفحص المريض ، ولكن لم يكن من شأنى ان انصح بذلك او اتذمر منه ، فقد ابيت دائما ان اتدخل فى هذه الأمور .. وحدث مرة او مرتين ، ان كنت افتح باب حجرتى ثانية ـ بعد أن نأوى إلى مخادعنا ـ فأجدها جالسة تبكى فى مرارة فوق قمة الدرج ، وعندئذ اسرع باغلاق باب الحجرة ثانية ، خشية ان يدفعنى تأثرى إلى التدخل .. كنت وقتئذ اشفق عليها وارثى لحالها ، ولكنى ما رغبت فى ان افقد مركزى كما تعلمين ..

واخيرا ، اتت إلى حجرتى ذات ليلة فى جراة ، وكادت تفقدنى عقلى من الخوف عندما قالت :

ـ اخبرى مستر هيثكليف بأن ابنه يحتضر .. فأنا واثقة من ذلك هذه المرة .. هيا انهضى واذهبى إليه !

وما ان نطقت بهذه الكلمات حتى اختفت عن انظارى .. واقول لك الحق اننى لم أتحرك من فراشى زهاء ربع ساعة قضيته ارهف السمع وارتعد من الخوف .. ولكنى لم اسمع شيئا .. كان المنزل يخيم عليه صمت عميق .. فقلت لنفسى : « لقد اخطأت ، ولابد انه أفاق من النوبة التى غشيته !.. لذلك لا حاجة بى إلى إزعاجهم » .. وغلبنى النعاس ، ولكن نومى قطعه ثانية رنين الجرس وهو يدوى حادا رهيبا ـ وهو

الجرس الوحيد الذى بالمنزل ، وقد وضع فى حجرة لينتون خصيصا له ـ وسمعت السيد يناديني لأرى ما هنالك ، ولانذرهم بانه لا يود ان تتكرر هذه الضجة ثانية ..

وعندئذ ابلغته رسالة كاثرين ، فراح يسب ويلعن ، وما لبث ان خرج بعد دقائق قليلة ، وفى يده شمعة موقدة ، ثم تقدم إلى حجرتهما .. فتبعته .. كانت كاثرين تجلس بجوار الفراش ، ويداها مطبقتان فوق ركبتيها .. ومضى حموها نحو الفراش ، ورفع الشمعة امام وجه لينتون ، وتطلع إليه ، ثم تحسسه .. وبعد ذلك تحول نحوها قائلا :

ـ بماذا تحسين الآن يا كاثرين ؟

فلم تنبس ببنت شفة ، فعاد يقول :

ـ بماذا تحسين الآن ؟

وعندئذ اجابته :

ـ انه أصبح بمنجاة منك ، وغدوت حرة !.. وكان ينبغى ان اكون راضية ، ولكن ..

ثم اردفت فى مرارة لا تستطيع كتمانها :

ـ ولكنك تركتنى اكافح الموت طويلا ، حتى لم اعد احس او ارى سوى الموت .. اننى احس كأننى انا الميتة !

والواقع انها كانت تبدو اشبه بذلك ، فأحضرت إليها شيئا من النبيذ .. وكان هيرتون وجوزيف ، اللذان ايقظهما رنين

الجرس ووقع اقدامنا ، ثم سمعا كلامنا من خارج الحجرة ، قد دخلا علينا .. كان جوزيف ، فيما اعتقد ، مسرورا للتخلص من الفتى .. أما هيرتون فكان يبدو منزعجا قليلا ، وان كان اهتمامه بالحملقة فى وجه كاثرين ، أكثر من تفكيره فى لينتون .. ولكن السيد أمره بالعودة إلى فراشه ثانية ، لاننا فى غير حاجة إلى معونته .. وبعد ذلك أمر جوزيف بنقل الجثة إلى حجرته ، وطلب إلى ان اعود إلى غرفتى .. وهكذا تركنا مسز لينتون وحدها ..

« وارسلنى فى الصباح لأخبرها بانها يجب ان تنزل كى تتناول افطارها .. ولكنها كانت قد خلعت ثيابها وبدا عليها كأنما تهم بالذهاب إلى الفراش ، فقالت لى انها مريضة لا تستطيع النزول ، وهو شيء لم يأخذنى العجب منه .. فلما ابلغت ذلك لمستر هيثكليف اجابنى قائلا :

ـ حسنا .. دعيها كذلك إلى ما بعد تشييع الجنازة ، وعليك ان تذهبى إليها بين الحين والآخر لتحملى إليها ما يلزمها .. ولكن اخبرينى بمجرد ان تريها تحسنت .. » .

وقد مكثت كاثى معتكفة فى حجرتها اسبوعين ، حسبما ذكرت زيلا ، التى كانت تزورها مرتين كل يوم ، وارادت أن تتودد إليها ، ولكن محاولاتها من مظاهر العطف المتزايد كانت تصد على الفور فى كبرياء وترفع ..

وصعد إليها هيثكليف مرة ليطلعها على وصية لينتون .. وكان قد اوصى بكل ما كان يملكه ، وما كانت تملكه هى ، من

اموال منقولة ، إلى ابيه .. فقد ارغم المسكين ، او اغرى ، على ذلك خلال الاسبوع الذى غابته فى منزلها عند موت ابيها .. أما الأرض والعقار فلم يستطع ادخالهما فى الوصية لانه كان ما يزال قاصرا لا يمكنه التصرف فيهما .. وعلى كل حال فان مستر هيثكليف طالب باثبات إرثه وإرث زوجة ابنه فيهما ، وعين مشرفا على نصيبها فى التركة .. ومهما يكن من امر فان كاثرين لم تكن تستطيع التعرض له فى حيازته لممتلكاتها ، إذ كانت مجردة من الأصدقاء والنقود ..

ومضت زيللا تقول لى : « لم يكن احد يقرب باب حجرتها قط ـ عدا المرة التى صعد إليها فيها مستر هيثكليف ـ سواى .. كذلك لم يكن احد يسال عنها البتة .. وكانت المناسبة الأولى التى نزلت فيها إلى حجرة الجلوس ، بعد ظهر يوم احد ، وكنت قد حملت إليها طعام الغداء ، فوجدتها تبكى وتقول انها لم تعد تحتمل البقاء فى البرد .. فأخبرتها بأن السيد يزمع الذهاب إلى « ثرشكروس جرانج » ، وأن وجود ايرنشو ووجودى لا يجب ان يحول دون نزولها .. وهكذا ماكادت تسمع حوافر جواد هيثكليف ينطلق به خارجا ، حتى ظهرت فى حجرة الجلوس ، مجللة بالسواد ، وقد أزاحت غدائرها الذهبية وراء أذنيها فى بساطة كأنها واحدة من المتدينات المتزمتات .. فلم يكن فى وسعها ان ترخى غدائرها كعادتها .. وكنت وجوزيف نذهب عادة إلى الهيكل فى ايام الآحاد .. (قالت مسز دين مفسرة ان الكنيسة الآن بغير قس ، ولذلك يستخدمون مكان العماد فى جيمرتون هيكلا للصلاة) .. وكان جوزيف قد ذهب يومئذ ، فرأيت من

الاوفق أن امكث بالمنزل .. فان الافضل دائما ان يظل الشباب تحت اشراف شخص اكبر سنا !.. كما ان هيرتون ، مع حيائه وخجله ، ليس مثالا للمسلك الرقيق .. وقد أفهمته ان ابنة عمته قد تحضر لتجلس معنا ، وأنها اعتادت دائما أن ترى يوم الأحد مبجلا .. ونصحت له بأن يدع العبث ببنادقه وغيرها من مشاغله المنزلية ، مدة مكثها معنا .. وما كاد يسمع ذلك النبأ حتى تورد وجهه وراح ينظر إلى ثيابه ويديه ، وسرعان ما اختفت آثار الشحم والبارود فى دقيقة واحدة .. ففهمت انه ينوى الجلوس فى صحبتها ، وحدست من مسلكه انه يريد ان يكون لطيف المعشر ، حسن المظهر .. وعندئذ ضحكت ضحكة رنانة لا أجرؤ على مثلها فى وجود السيد ، ثم عرضت عليه أن اساعده فى إصلاح شأنه ـ إذا اراد ـ بعد أن رحت امازحه واضحك من ارتباكه .. فبدا عليه الغضب وزمجر ساخطا لاعنا !

واستطردت زيللا تقول ، وقد رات عدم ارتياحى لمسلكها :

ـ لعلك يا مسز دين ترين سيدتك الصغيرة من الرقة والثقافة بحيث لا تليق بمستر هيرتون !.. ولعلك على حق ! .. ولكنى شد ما وددت ان اطامن من كبريائها قليلا .. ثم ما الذى ستنفعها به ثقافتها ورقتها الآن ؟.. انها فقيرة مثلك ومثلى .. بل اجزم انها أشد فقرا ؟.. فانت تدخرين مرتبك ، وبدات انا احذو حذوك !

وسمح هيرتون لزيللا بأن تساعده فى إصلاح هندامه ، فراحت تطريه وتتملقه لتجعله رضى الخلق مبسوط المزاج ..

وهكذا ما إن اتت كاثرين ، حتى كان قد نسى إهاناتها السابقة له ، واقبل عليها يحاول ان يبدو لطيفا معها ، حسبما روت لى مدبرة المنزل إذ قالت :

ـ دخلت السيدة الصغيرة ترتعد من البرد كأنها قطعة من الجليد ، وترفع راسها شامخة كأنها إحدى الأميرات .. ونهضت من مجلسى ، وعرضت عليها مقعدى الكبير ذا المسندين .. كلا .. لقد اشاحت بوجهها ، وشمخت بانفها استنكارا لتلطفى !.. ونهض ايرنشو كذلك ، وطلب إليها أن تاتى إلى الاريكة فتجلس ملاصقة للمدفاة ، قائلا انه واثق من انها تكاد تموت من البرد !

فأجابته وهى تضغط على الكلمة الأخيرة بكل ما وسعها من ازدراء :

ـ لقد ظللت شهرا او اكثر اكاد اموت من البرد !

« ثم أحضرت لنفسها مقعدا وجلست بعيدا عنا كلينا .. وظلت تجلس ساكنة حتى سرى الدفء فى بدنها ، وعندئذ بدات تجيل انظارها حولها ، فاكتشفت عددا من الكتب فوق رف الصوان ، فاستوت قائمة على قدميها ثانية ، وحاولت أن تمد ذراعها لتحضرها ، ولكن الكتب كانت مرتفعة عن متناولها .. وبعد ان لبث ابن خالها يرقب محاولاتها برهة ، استجمع شجاعته أخيرا ونهض لمساعدتها .. فأمسكت بثوبها وتلقت فيه أول مجموعة من الكتب وصلت إليها يده ..

« كان ذلك تقدما باهرا من الفتى !.. ومع انها لم تشكره ،

إلا انه كان يشعر بانه قد جوزى خير الجزاء بقبولها مساعدته .. ووافته الجراة ليقف خلفها وهى تقلب فى الكتب ، ثم تمادى إلى درجة الانحناء ليشير إلى ما يثير اهتمامه فى بعض الصور القديمة التى تتضمنها .. ولم تروعه تلك الطريقة الوقحة التى كانت تجذب بها الصفحة من تحت أصبعه ، بل كان يكتفى بان يبتعد قليلا إلى الخلف ، ثم يتطلع إليها بدلا من الكتاب !.. واستمرت تقرا ، او تبحث عن شىء تقرؤه .. وبدا اهتمامه يتركز تدريجيا فى دراسة غدائرها الحريرية الكثيفة ، فلم يكن يستطيع رؤية وجهها ، كما أنها كانت لا تستطيع ان تراه !.. ولعله لم يكن منتبها تماما لما أقدم عليه ، وانما كان مثله مثل طفل يجتذبه لهب الشمعة ، عندما تحول من مجرد النظر إلى اللمس .. فقد مد يده وربت على إحدى غدائرها فى رفق بالغ كأنه يداعب عصفورا .. وكأنما طعنها بسكين فى عنقها !.. فقد استدارت إلى الخلف ثائرة ، وهى تصيح به فى نبرات تفيض ازدراء واشمئزازا :

ـ امش من هنا حالا !.. كيف تجرؤ على ان تلمسنى ؟.. ولماذا تقف هنا ؟.. اننى لا اطيقك البتة !.. وسوف اعود إلى حجرتى ثانية ، إذا اقتربت منى بعد ذلك !

« فتراجع مستر هيرتون ، وقد اكتسى وجهه طابعا من البلاهة ، ثم جلس على الاريكة فى هدوء وسكون ، بينما استمرت تقلب صفحات كتبها اكثر من نصف ساعة .. واخيرا قام هيرتون ودنا منى ليهمس فى اذنى :

ـ اسأليها ان تقرا لنا يا زيلا ، فقد جمدت اطرافى من



وكأنما طعنها بسكين فى عنقها !.. فقد استدارت الى الخلف ثائرة ، وهى تصيح به فى نبرات تفيض ازدراء واشمئزازا ..

الجلوس ساكنا لا افعل شيئا .. ثم اننى احب .. اعنى يمكن ان احب سماع صوتها .. ولكن لا تقولى اننى طلبت ذلك ، بل اجعلى السؤال من تلقاء نفسك ..

فقلت فى الحال :

ـ ان مستر هيرتون يود لو قرات لنا قليلا يا سيدتى .. وسوف يقدر لك هذا العطف ، ويشكرك عليه كثيرا ..

فقطبت حاجبيها ، ثم رفعت راسها ، لتجيب :

ـ ان مستر هيرتون ، وسائر عصابتكم جميعا ، سوف تحسنون صنعا لو أدركتم اننى أرفض كل زعم لكم بهذا العطف الذى تجدون من النفاق ما يكفى لإظهاره نحوى .. اننى احتقركم ، ولن يكون لدى ما اقوله لأى واحد منكم .. فعندما كنت على استعداد لأن اهب حياتى لقاء كلمة عطف واحدة ، او مجرد رؤية وجه واحد منكم ، ظللتم جميعا بعيدا عنى ، وتجنبتمونى !.. ولكنى لن اشكو إليكم !.. وما دفعنى إلى النزول إلى هنا سوى البرد ، لا الرغبة فى التسلية ولا فى الاستمتاع بصحبتكم !

فدمغم ايرنشو :

ـ ما الذى كان فى وسعى ان افعله ؟.. وكيف يمكن الام ..؟

فقاطعته مسز هيثكليف :

ـ أوه !.. اننى أستثنيك مما كنت أقول .. فما شعرت البتة بأنى فى حاجة إلى مثل اهتمامك !

فقال :

ـ ولكنى عرضت أكثر من مرة ، وسألت مستر هيثكليف أن يسمح لى بأن أرعاك ..

وكأنما كان يزيد قحتها وسلاطتها ضراما ، إذ أجابته مقاطعة :

ـ اصمت !.. خير لى أن أغادر الدار ، أو أذهب إلى أى مكان ، من أن يطرق صوتك الكريه مسامعى !

فغمغم هيرتون قائلا انه من ناحيته يرى أن تذهب إلى الجحيم !.. ثم نهض وتناول بندقيته المعلقة ، وحرر نفسه من تقاليد يوم الأحد ، فلم يعد يتقيد بها بعد ذلك !.. ثم مضى يتحدث إلى فى انطلاق وتحرر ، وسرعان ما رأت من الأوفق أن تنسحب إلى وحدتها وعزلتها .. ولكن اشتداد الصقيع بعد ذلك ارغمها ، برغم كبريائها ، على التنازل وارتضاء رفقتنا يوما بعد يوم .. أما أنا فقد عنيت بأن أجنب نفسى الازدراء والاحتقار لقاء ما أبديته نحوها من طيب الشمائل ، فأصبحت منذ ذلك الحين فى مثل جمودها وتصلبها .. والواقع أنها لا تلقى بيننا من يحبها أو يودها .. فهى لا تستحق حبا أو ودا .. لأن أقل كلمة يقولها أحدنا لها ، تجعلها تتلوى فى وجهه دون أن توقر أحدا !.. بل أنها لا تتورع عن أن تثور فى وجه السيد نفسه على نحو يجعله ينهال عليها لطما وصفعا .. وكلما ازداد إيذاؤه لها ، كلما ازداد حقدها وكثرت السموم التى تنفثها .. » .

ولقد صممت ، فى بادىء الأمر ، عندما سمعت حديث زيللا هذا ، على أن أترك وظيفتى وأستأجر كوخا ، وأحضر كاثرين لتعيش معى فيه .. ولكن مستر هيثكليف لن يوافق على ذلك إلا مثلما يرضى بأن يسكن هيرتون منزلا مستقلا !.. ولست أرى علاجا لحالتها الآن ، إلا إذا استطاعت الزواج ثانية ، وهو شىء ليس فى قدرتى أن أحققه !

* * *

وهكذا انتهت قصة مسز دين عن هيثكليف وأسرته ..

أما أنا ، فعلى الرغم من تكهن الطبيب ، فقد بدأت أستعيد قواى فى خطى حثيثة .. ومع أننا ما نزال فى الأسبوع الثانى من شهر يناير ، فقد عزمت على الخروج بعد يوم أو اثنين ، فأمتطى جوادا ، وأذهب إلى « مرتفعات ويذرنج » لأخبر المالك بأننى أعتزم قضاء الشهور الستة القادمة فى لندن ، وأن له ، إذا شاء ، أن يبحث عن مستأجر آخر « للجرانج » بعد شهر أكتوبر .. فلن أقضى شتاء آخر فى هذه المنطقة مهما أعطيت !!

* * *

الفصل الحادى والثلاثون

كان الأمس يوما مشرق الضياء ، ساكن الريح ، قارس البرد .. وقد ذهبت إلى « المرتفعات » كما انتويت ، ورجتنى مدبرة منزلى ان احمل رقعة صغيرة منها إلى سيدتها الشابة ، فلم ارفض رجاءها ، لأن المرأة الطيبة لم تكن تدرك ما فى رجائها هذا من غرابة وشذوذ ..

ووجدت باب المنزل الخارجى مفتوحا ، ولكن البوابة المنيعة كانت موصدة ، كما وجدتها فى زيارتى السابقة .. فطرقت فوقها بيدى ، ودعوت هيرتون ايرنشو من حيث كان يعمل بين أحواض الحديقة ، فرفع السلسلة التى كانت موصدة بها ، ودخلت .. وقد وجدت الفتى وسيما لطيفا ، بقدر ما تكون الوسامة والرقة الريفية .. وقد اعرته انتباها خاصا هذه المرة ، ولكنه يومئذ كان يفعل كل ما فى وسعه ليظهر أقل القليل من ميزاته !

وسألته ان كان مستر هيثكليف موجودا ، فأجابنى : « كلا .. ولكنه سيحضر فى موعد الغداء » وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة وقتئذ ، فأعلنت عزمى على الدخول وانتظاره .. وما كدت أقول ذلك حتى رمى بأدواته ، وصحبنى إلى الداخل ، لا ليبقى فى رفقتى بديلا لمضيفى ، بل ليقوم بمهمة كلب الحراسة ..

دخلنا إلى حجرة الجلوس معا .. وكانت كاثرين هناك ، تشغل وقتها فيما يجدى ، إذ كانت تعد بعض الخضر للوجبة

المقبلة !.. وكانت تبدو أكثر تجهما وأقل بشاشة مما رأيتها اول مرة .. بل انها لم ترفع عينيها لتنظر إلى ، واستمرت فى عملها بنفس الاغفال لمظاهر اللياقة المتعارف عليها ، الذى لمسته منها من قبل .. فلم ترد انحناءتى وتحيتى ، وتجاهلتنى تماما .. فقلت لنفسى :

ـ انها لا تبدو لطيفة ودودة كما حاولت أن تقنعنى مسز دين !.. انها آية من آيات الجمال حقا ، ولكنها ليست ملاكا !

وطلب إليها ايرنشو فى جفاء ان تأخذ اشياءها إلى المطبخ ، فدفعتها بعيدا عنها وهى تجيبه فى سرعة : « خذها بنفسك ! » .. ثم قامت فذهبت إلى النافذة وجلست على مقعد صغير ، وراحت تحفر أشكالا لبعض الطيور والحيوانات فى قشور ثمار « اللفت » التى كانت فى حجرها .. فدنوت منها ، متظاهرا بالرغبة فى مشاهدة الحديقة ثم أسقطت رقعة مسز دين فوق ركبتها فى براعة وحذق ، كما خيل إلى وقتئذ ، فى غفلة من هيرتون .. ولكنها ألقت بها بعيدا وهى تسألنى بصوت مرتفع :

ـ ما هذه ؟

فساءنى ان كشفت بهذه الحماقة عن حسن صنيعى ، وخشيت ان يظن ان الرسالة منى ، فقلت :

ـ انه خطاب من رفيقة قديمة لك ، هى مدبرة المنزل فى « الجرانج » ..

وما أن سمعت ذلك حتى همت بالتقاطه وقد غمرها الفرح ، لولا أن هيرتون كان أسبق منها إليه ، فاخذه ووضعه فى جيب صدريته ، قائلا ان مستر هيثكليف يجب أن يراه اولا .. وعند ذلك اشاحت بوجهها عنا فى صمت ، ورأيتها تخرج منديلها خلسة وترفعه إلى عينيها .. اما ابن خالها فبعد أن راح يناضل مشاعره الرقيقة فى بادىء الأمر ، اخرج الخطاب من جيبه وطوح به إلى الأرض بجوارها ، بقدر ما وسعه من خشونة وفظاظة .. والتقطته كاثرين ومضت تطالعه فى لهفة وتشوق ، ثم أخذت تلقى على قليلا من الأسئلة المعقولة والتافهة عن سكان منزلها السابق .. وظلت لحظة تحدق بأنظارها ناحية التلال ، وما لبثت ان غمغمت تناجى نفسها :

ـ ليتنى أستطيع ان أركب مهرى « مينى » هناك !.. وشد ما اتوق إلى تسلق الشجر هناك !.. أواه !.. اننى متعبة .. لقد تجمدت أطرافى يا هيرتون !

ثم أسندت رأسها الجميل إلى قاعدة النافذة وهى تخفى تنهدها بالتثاؤب ، ثم استغرقت فى شرودها الحزين ، غير مكترثة ، او منتبهة ، ان كنا نراها ..

وبعد أن جلست صامتا بعض الوقت ، خاطبتها قائلا :

ـ الا تدرين يا مسز هيثكليف اننى عرفتك من قبل ؟.. وان اواصر المعرفة قد توثقت بيننا حتى لأجد من الغريب الا تأتى فتتحدثى إلى ؟.. ان مدبرة منزلى لا تكل عن الحديث

عنك وامتداحك لحظة واحدة ، ولسوف يسوؤها كثيرا أن اعود إليها صفر اليدين من اية أنباء عنك او منك ، اللهم إلا أنك تلقيت خطابها فلم تقولى شيئا !

فبدا عليها الاستغراب من حديثى ، وسألتنى :

ـ هل تحبك ايلين ؟

فأجبت مترددا .

ـ نعم .. كثيرا ..

ـ يجب ان تخبرها إذن اننى كنت أود الرد على خطابها لولا أننى لا أملك شيئا من وسائل الكتابة ، وليس عندى كتاب واحد استطيع ان انزع منه ورقة لأكتب عليها ..

فهتفت متعجبا :

ـ لا كتب عندك ؟.. وكيف بالله تطيقين العيش هنا بدونها ، لو كان لى ان أسأل هذا السؤال ؟.. اننى برغم ما لدى من مكتبة عظيمة ، ينتابنى السأم كثيرا فى « الجرانج » .. اما إذا حرمتنى كتبى ، فاننى يتملكنى اليأس المرير !

فقالت كاثرين :

ـ لقد كنت اقرأ فيها دائما ، عندما كانت عندى .. ولكن مستر هيثكليف لا يقرأ شيئا قط ، ولذلك وضع فى ذهنه ان يدمر كتبى جميعا .. وها قد مضت أسابيع برمتها لم تقع لى نظرة واحدة على كتاب .. ولكن حدث مرة أن رحت انقب فى ذخيرة جوزيف من كتب الدين ، وركبه من ذلك هم عظيم .. كما حدث مرة ، يا هيرتون ، أن وقعت على مكتبة خفية

فى حجـرتك ، بعض الكتب اللاتينيـة واليونانية ، وبعض القصص وديوان شعر ، وكلها أصدقاء قدماء لى ، فأحضرت الأخير إلى هنا .. وقد كنت تجمعها ، كطائر العقعق الذى يجمع الملاعق الفضية لمجرد حبه للسرقة !.. فانها عديمة الجدوى لك .. أو لعلك كنت تخفيها بتلك الروح الخبيثة ، وهى انك ما دمت عاجزا عن الاستمتاع بها ، فلن يستمتع بها غيرك !.. وربما كان حسدك هذا هو الذى دفع مستر هيثكليف إلى حرمانى من ذخائرى ؟.. ولكن معظمهـا قد سطر فى ذهنى ، وطبع على صفحة قلبى ، ولن تستطيع ان تحرمنى من هذا أو ذاك !

نغدا وجه هيرتون أرجوانيا وهو يسمع ابنة عمته تفشى سره وتكشف عن مجموعته الخاصة من كتب الادب ، واخذ يتمتم متلعثما بالفاظ حانقة حاول بها ان ينكر اتهاماتها ، فتقدمت لنجدته ، قائلا :

ـ ان مستر هيرتون شديد الرغبة فى زيادة حصيلته من العلم والمعرفة .. وهو لم يكن يحسدك على ما بلغتـه من ثقافة ، وإنما كان يغبطك .. ولسوف يغدو طالبا نابهـا فى سنوات قليلة ..

فقالت كاثرين :

ـ وهو يريد منى أن اغرق فى لجة الجهل أثناء ذلك !.. نعم ، لقد سمعته يحاول الهجاء والمطالعة وحده ، وكم من أخطـاء عجيبة وقع فيها !.. ليتك تعيد قراءة « مطاردة

الصيد » كما كنت تفعل بالأمس !.. لقد كانت مهزلة واى مهزلة !.. لقد سمعتك تقرؤها ، وسمعتك تبحث فى القاموس عن الكلمات الصعبة ثم تسب وتلعن لانك لا تستطيع ان تقرأ شرحها !

ولا ريب ان الشاب كان يراه أمرا بالغ السوء أن يسخر أحد منه لجهله ، ثم يسخر منه بعد ذلك لمحاولته التخلص من هذا الجهل !.. وقد شعرت بمثل شعوره ، وتذكرت ما روته لى مسز دين عن محاولته الأولى فى إثارة ظلمة الجهل التى كان يعيش فيها حبيسا ، فقلت :

ـ ولكننا جميعا يا مسز هيثكليف بدانا بمثل هذه البداية .. كلنا كنا نتعثر ونترنح على عتبة المعرفة .. ومع ذلك فلو كان مدرسونا قد سخروا منا بدلا من أن يساعدونا ، لازداد تعثرنا وترنحنا ، ولمـا بلغنا ما بلغناه ..

فاجابت :

ـ آه !.. اننى لا أريد أن أحد من تحصيله ، ولكنى لا ارى له حقا فى الاستيلاء على ما أملكه ، ثم يجعله يبدو سخيفا فى نظرى بأخطائه القبيحة وسوء نطقه الفظيع .. ان هـذه الكتب ، سواء أكانت نثرا أم شعرا ، تقترن فى ذهنى بذكريات اخرى .. وانى اكره ان يحط من قدرها ويدنسها عندما يلوكها فى فمه !.. وفضـلا عن ذلك كله فقد اختـار أحب القطع إلى نفسى ، تلك التى أحب أن أرددها أكثر من غيرها ، كأنما يصدر فى ذلك عن عمد ناشىء من خبث طويته ..

فأخذ صدر هيرتون يعلو ويهبط فى صمت لحظة طويلة .. كان يعتمل فى نفسه شعور قاس من الهوان والحنق معا ، لم يكن فى طاقته ان يكبحه .. فرايت من حسن اللياقة ان اجنبه الحرج ، ومن ثمت نهضت ومضيت نحو الباب ووقفت فى مدخل الحجرة اقلب النظر فى المنظر الخارجى الممتد امامى .. فاذا به يتبعنى ، ويغادر الحجرة .. وما لبث ان عاد بعد زمن يسير ، يحمل بين يديه عددا من الكتب والمجلدات القى بها فى حجر كاثرين وهو يصيح :

ـ خذيها !.. فما عدت اريد ان اسمع عنها او اقراها او افكر فيها بعد الآن !

ـ ولكنى لن آخذها .. سوف اقرن بينها وبينك ، فابغضها !

ومع ذلك فقد تناولت احدها ، وكانت تبدو عليه كثرة الاستعمال والتقليب ، وراحت تقرا فيه بنغمة متعثرة كمبتدىء يتعلم الهجاء .. ثم انطلقت ضاحكة ، وطوحت بالكتاب وهى تستطرد ، فى إثارة واستفزاز ، قائلة : « اسمع هذه ايضا ! ».. ثم بدات تلقى شعرا من ملحمة قديمة بالنغمة واللهجة نفسها !

عندئذ لم تعد مشاعره تحتمل المزيد من العذاب ، فسمعته ـ والحق اننى لم استهجن ما فعله ـ يضع حدا لانطلاق لسانها الخبيث بحركة من يده !.. لقد فعلت الشقية كل ما فى وسعها لإيذاء مشاعر ابن خالها ، وهى مشاعر إن كانت

لم تلق نصيبها من التهذيب ، إلا انها كانت شديدة الحساسية .. فكان الرد البدنى هو الوسيلة الوحيدة التى يملكها لتصفية الحساب ، وسداد الدين للمعتدى !.. وبعد ذلك جمع الكتب وقذف بها فى وسط النيران .. وقد قرات فى اساريره مبلغ ما يعانيه من الم إذ يقدم هذه الضحية على مذبح الحقد والغيظ !.. وخيل إلى ، بينما كانت النار تلتهمها ، انه يستعيد ذكرى ما وفرته له من سرور وانبساط ، ونشوة النصر والمتعة المتزايدة اللتين استمدهما من هذه الكتب .. بل لقد خيل إلى اننى استطيع ان احدس الباعث له على هذه الدراسات التى كان يقوم بها فى الخفاء !.. لقد كان قانعا بعمله اليومى ، ومتعه الحيوانية البدائية ، حتى عبرت كاثرين طريقه .. فكان خزيه من ازدرائها ، وامله فى رضائها ، هما اللذان استحثاه فى بادىء الأمر على ان ينشد التقدم والارتقاء .. وبدلا من ان تحميه محاولاته نحو السمو بنفسه من الخزى ، او تنيله الرضاء ، وجدها تنقلب إلى عكس النتيجة التى كان يرجوها ..

فصاحت كاثرين وهى تلعق شفتها الدامية ، وتنظر إلى الكتب المحترقة بعينين تفيضان حنقا وغيظا :

ـ نعم .. فهذا كل ما يستطيع جلف مثلك ان يجنيه من فائدة منها !

وعندئذ اجابها فى ضراوة :

ـ خير لك ان تمسكى لسانك الآن !

ثم غلب عليه الانفعال فمنعه من الاسترسال فى الكلام ،

وأسرع نحو الباب ، فتنحيت قليلا حتى يستطيع المرور .. ولكن قبل أن يجتاز الدرجة الحجرية ، التقى به مستر هيثكليف وكان قادما من الممر ، فوضع يده فوق كتفه ، قائلا :

ـ ماذا تريد أن تفعل الآن يا بنى ؟

فأجاب هيرتون :

ـ لا شىء .. لا شىء !

ثم تملص منه ، وابتعد مسرعا لينشد فى الوحدة متنفسا عن حزنه وغضبه .. فأتبعه هيثكليف بأنظاره لحظة ، ثم تنهد وغمغم يقول لنفسه ، دون أن يشعر بوجودى خلفه :

ـ لو كذبت نفسى لكنت بالغ الشذوذ !.. ولكنى عندما أبحث عن شبه أبيه فى وجهه ، أجد ملامح عمته تزداد وضوحا يوما بعد يوم !.. كيف أصبح يشبهها إلى هذا الحد ، بحق الشيطان ؟.. اننى لا أكاد أحتمل أن أراه !

ثم غض من أنظاره ، ومضى إلى داخل الحجرة مهموما مكتئبا .. كانت ترتسم فى محياه لمحة من القلق والاضطراب لم ألحظها عليه قط من قبل .. بل لقد بدا فى نظرى أشد نحولا وهزالا .. وكانت زوجة ابنه قد فرت هاربة إلى المطبخ ، على أثر رؤيته من خلال النافذة .. وهكذا بقيت فى الحجرة وحدى .

وتقدمت نحوه محييا ، فأجاب :

ـ يسرنى أن أراك قد شفيت وغادرت المنزل ثانية يا مستر لوكوود !.. وهو شعور ينبعث بعضه عن الأنانية !..

فلا اظننى قادرا الآن على تعويض خسارتنا فيك فى هذه البقعة الموحشة !.. ولقد تملكنى العجب أكثر من مرة فيما جاء بك إلى هنا ..

فكان جوابى : « أحسبها كانت نزوة خاسرة يا سيدى !.. أم لعلها نزوة خاسرة هى تلك التى تحثنى الآن على الرحيل .. فسوف أرحل إلى لندن ، فى الأسبوع القادم ، ولابد لى من أن أنذرك بأننى لا أحس ميلا أو استعدادا للاحتفاظ « بثرشكروس جرانج » بعد السنة التى اتفقت معك على استئجاره خلالها .. وأعتقد أننى لن أقيم فيه بعد الآن ! » .

ـ حقا ؟.. أحسبك قد تعبت من هذا النفى عن العالم ، أليس كذلك ؟.. ولكن إذا كنت قد أتيت لتطلب اعفاءك من سداد إيجار مكان لا تنوى أن تشغله ، فان رحلتك إلى هنا لا طائل وراءها !.. فانى لا أتساهل البتة فى اقتضاء حقوقى من أى انسان !

فصحت به ، وقد أثارنى قوله كثيرا :

ـ اننى ما أتيت لأطلب شيئا من ذلك .. ولو أردت باقى الإيجار الآن ، فانى على استعداد لسداده ..

ثم أخرجت دفتر الشيكات من جيبى ، ولكنه قال فى برود :

ـ كلا .. كلا .. فسوف تترك وراءك ما يكفى لسداد دينك ، إذا لم تحضر بنفسك لدفعه .. أما الآن فلست فى عجلة من الأمر !.. اجلس يا مستر لوكوود ، وتناول غداءك معنا ، فلا بأس من الترحيب بضيف يأمن المرء من تكرار زيارته !.. كاثرين !.. أعدى المائدة !.. أين أنت ؟

فظهرت كاثرين ثانية ، تحمل مجموعة من الشوك والسكاكين .. وعندئذ غمغم هيثكليف يقول لها على حدة :

ـ يمكنك أن تتناولى غداءك مع جوزيف ، وابقى فى المطبخ حتى ينصرف !

واطاعت تعليماته فى دقة بالغة .. ولعلها لم تجد ما يغريها بمخالفته .. أو لعل معيشتها بين المهرجين وأعداء البشر قد جعلتها لا تستطيع أن تقدر من هم ارقى منهم عندما تلتقى بهم ..

وكان غداء كئيبا نوعا ما ، بين مستر هيثكليف فى عبوسه وتجهمه ، وبين هيرتون فى صمته الأبكم . وما لبثت أن ودعتهما مستأذنا فى الانصراف مبكرا .. وكنت أود ان اخرج من باب المطبخ ، عسى ان القى نظرة اخيرة على كاثرين ، واغيظ جوزيف العجوز .. ولكن هيرتون كان قد تلقى الأمر باحضار جوادى امام الباب الرئيسى ، وشيعنى مضيفى بنفسه إلى الباب ، وهكذا لم تسنح لى الفرصة لتحقيق رغبتى ..

وبينما كنت انطلق فى الطريق نحو منزلى كنت اقول لنفسى :

ـ يا لها من حياة كئيبة تلك التى تمضى فى هذه الدار !..

وما كان اروعه من ادراك مسز لينتون هيثكليف لشىء اكثر شاعرية وخيالا مما فى القصص الخرافية ، لو أننى وهى عقدنا اواصر المحبة بيننا ، كما تمنت مربيتها الطيبة ، ثم ارتحلنا معا إلى جو المدينة المثير النابض بالحياة !

* * *

الفصل الثانى والثلاثون

سنة ١٨٠٢

دعيت فى شهر سبتمبر الحالى إلى ارتياد البرارى فى ضيعة صديق لى يقيم فى الشمال ، وكنت فى طريقى إليه عندما وجدت نفسى ، على غير انتظار ، على بعد خمسة عشر ميلا من قرية « جيمرتون » .. وكان صاحب نزل ريفى على الطريق يحمل دلوا من الماء لينعش به جيادى ، عندما مرت به عربة محملة بالشوفان الأخضر الحديث الحصاد ، فصاح به :

ـ هذه من جيمرتون ، ها ؟.. انهم دائما يتأخرون فى الحصاد ثلاثة أسابيع عن غيرهم من الناس !

وكانت ذكرى اقامتى فى تلك الناحية قد غشيتها غلالة رقيقة حالمة ، فانبعث قائلا :

ـ جيمرتون ؟.. اننى أعرفها .. كم تبعد عن هذا المكان ؟

فأجاب الفندقى :

ـ بيننا وبينها خمسة عشر ميلا ، وطريق شديد الوعورة !

فتملكتنى رغبة مفاجئة فى زيارة « ثرشكروس جرانج » .. وكان النهار يوشك أن ينتصف ، وقدرت اننى أستطيع قضاء الليلة تحت سقف منزلى ، كما كنت ساقضيها فى نزل ريفى صغير .. وفضلا عن ذلك ففى وسعى أن أستغنى عن يوم

بسهولة ، لارتب أمورى مع صاحب المنزل ، وبذلك اوفر على نفسى مشقة الحضور إلى هذه الأنحاء مرة أخرى .. فانتظرت ريثما ارتحت قليلا ، وأمرت خادمى بأن يستفسر عن الطريق إلى القرية ، وما لبثنا أن وصلنا إليها بعد ثلاث ساعات لقيت فيها دوابنا عناء عظيما ..

تركت خادمى فى القرية ، وتقدمت وحدى اهبط الوادى .. كانت الكنيسة القائمة تبدو اشد قتامة ، والمقبرة الموحشة تلوح اكثر وحشة .. ولمحت شاة من شياه البرارى ترعى الكلأ القصير فوق القبور .. كان الجو جميلا دافئا ، بل أشد دفئا مما يحتمله المسافر ، ولكن الحرارة لم تحل دون استمتاعى بالمناظر الساحرة فوقى وتحتى .. ولو كنت قد رايتها قرب اغسطس لكان من المحقق أن يدفعنى الاغراء إلى قضاء شهر بين ربوعها المنعزلة الموحشة .. فما من شىء اشد فظاعة فى الشتاء ، واشد سحرا وسموا فى الصيف ، من تلك الوهاد المحصورة بين التلال ، وتلك المرتفعات المتناثرة المغطاة بالعشب والكلأ ..

وبلغت « الجرانج » قبيل الغروب ، فطرقت الباب . ولكن الخدم كانوا معتكفين فى الجزء الخلفى من المنزل ، كما ادركت من ذلك الشريط الأزرق الرفيع الذى كان يتلوى فى الفضاء منبعثا من مدخنة المطبخ ، فلم يسمعنى أحد . ومضيت بجوادى نحو الفناء .. فرأيت تحت مظلة الباب بنتا فى التاسعة أو العاشرة من عمرها جالسة تحبك صوفا ، كما شهدت امراة عجوزا متكئة على درج الباب ، ومستغرقة فى تدخين غليونها .. فسألتها :

ـ هل مسز دين فى الداخل ؟

فاجابت :

ـ مسز دين ؟.. كلا .. انها لا تقيم هنا .. بل هناك فى « المرتفعات » ..

ـ وهل أنت مدبرة المنزل إذن ؟

ـ نعم .. أنا التى أرعاه الآن ..

ـ حسنا .. اننى مستر لوكوود ، السيد !.. ترى هل اجد اية حجرة لإيوائى ؟.. اننى اريد قضاء الليلة هنا ..

فصاحت فى دهشة ، وفى تلك اللهجة الريفية الغريبة :

ـ السيد ؟.. ماذا ؟.. من كان يعرف بمقدمك ؟.. كان يجب أن تبعث بكلمة .. فان المكان كله لا توجد به حجرة جافة او مفروشة .. ولا واحدة !

ثم القت بغليونها ، واندفعت إلى الداخل ، والبنت فى اعقابها .. فتبعتهما وسرعان ما أدركت صدق ما قالته ، كما تبينت أننى كدت أخرجها عن صوابها بظهورى المفاجىء ، فطلبت إليها أن تهدأ قليلا وأخبرتها بأننى سوف أخرج للنزهة وعليها أن تحاول فى تلك الفترة اعداد ركن فى حجرة الجلوس لاتناول عشائى فيه ، وان تعد لى حجرة أنام فيها .. قلت لها اننى لا أريد أن تكنس المكان او تمسحه ، فكل ما احتاج إليه نار مشبوبة ، وفراش جاف نظيف .. وكان يبدو عليها أنها راغبة فى بذل غاية جهدها لإرضائى ، برغم أنها دفعت فرشاة الكنس فى الموقد خطأ بدلا من محراك النار ،



ولم اجد نفسى مضطرا الى تسلق البوابة ، او الطرق عليها ، فما كدت ادفعها بيدى حتى استجابت لى ..

واخطات فى تناول أدوات عديدة اخرى مما تحتاجه فى مهمتها .. ولكنى انسحبت ، معتمدا على نشاطها فى ان اجد عند عودتى مقاما مريحا .. وكانت « مرتفعات ويذرنج » هدف نزهتى المزمعة ، ولكنى ما كدت أخلف الفناء ورائى ، حتى خطرت لى فكرة ، فعدت لأسألها :

ـ هل كلهم بخير فى « المرتفعات » ؟

فأجابتنى وهى تهرول حاملة دلوا مليئا بالفحم :

ـ نعم .. حسبما نعرف !

وكنت أود ان اسألها عن سبب رحيل مسز دين عن « الجرانج » ، ولكن كان من المحال ان اعوقها وهى فى غمرة تلك الأزمة التى تمر بها ، فاستدرت وتركت لها المكان ..

فلما غادرت حدود البستان ، وبدات ارقى الطريق الحجرى الجانبى المتفرع إلى منزل مستر هيثكليف ، مضيت أسير على مهل ، مع وهج الشمس الغاربة خلفى ، وجلال قمر مشرق أمامى ، الأولى تسير نحو الأفول ، والثانى يبدأ فى التألق والسطوع .. وقبل أن يصبح المنزل على مرمى النظر منى ، كان كل ما بقى من النهار ضياء كهرمانى خال من شعاع الشمس ، يمتد على طول الأفق الغربى .. ولكن كان فى وسعى ان ارى كل حصاة فى الممر ، وكل نصل من نصال العشب ، على ضوء ذلك القمر البهى .. ولم أجد نفسى مضطرا إلى تسلق البوابة ، او الطرق عليها ، فما كدت ادفعها بيدى حتى استجابت لى .. فقلت فى نفسى ان هناك

تقدما باهرا !.. وما لبثت ان تبينت تقدما آخر اكتشفته خياشيمى ، فقد كان عبير الريحان والزهور المتسلقة يسبح فى الهواء منبعثا من بين أشجار الفاكهة فى الحديقة ..

وكانت الأبواب والنوافذ كلها مفتوحة .. ومع ذلك ، فكما هى الحال عادة فى مناطق الفحم ، كانت تضىء المدفاة نار رائعة شديدة الوهج ، ان ارتاحت العين لمرآها فان حرارتها مما لا يطاق .. ولكن « مرتفعات ويذرنج » منزل ذو سعة ، يستطيع قاطنوه ان يجدوا فسحة من المكان ليبتعدوا عن لظاها .. وعلى ذلك فان الاثنين اللذين كانا بحجرة الجلوس وقتئذ ، اتخذا لنفسيهما مجلسا غير بعيد عن النافذة .. كنت استطيع أن أراهما واسمعهما يتكلمان ، قبل ان ادخل إليهما .. وهكذا تريثت قليلا ورحت انظر اليهما مرة واصغى لهما مرة أخرى ، وقد ثار فى نفسى شعور غريب امتزج فيه الفضول والغيرة معا !

سمعت صوتا رخيما كالأجراس الفضية ، يشدو قائلا :

ـ مضاد .. هذه هى المرة الثالثة التى اعلمك فيها كيف تنطق بالكلمة ، أيها الغبى !.. ولن أقولها لك مرة أخرى ، فانتبه جيدا وإلا جذبتك من شعرك !

فأجابها صوت آخر ، فى نبرات عميقة ذات عذوبة :

ـ مضاد ، إذن .. والآن قبلينى إذ احسنت النطق !

ـ كلا .. اقرأ القطعة صحيحة أولا دون أن تأتى غلطة واحدة ..

فبدا المتكلم الرجل يقرأ بصوت مسموع .. كان شابا فى مقتبل العمر ، يرتدى ثيابا أنيقة ، ويجلس إلى منضدة وامامه كتاب مفتوح .. وكانت أساريره الوسيمة تتألق بشرا وسرورا ، وعيناه لا تكفان عن الشرود ، فى صبر نافد ، من الكتاب إلى يد صغيرة بيضاء كانت موضوعة فوق كتفه ، ولا تفتأ تعيده إلى الوعى بلطمة رقيقة على وجنته كلما لاحظت صاحبتها شرود نظراته وعدم انتباهه !.. كانت صاحبة تلك اليد تقف خلفه ، وغدائرها الذهبية اللامعة تمتزج بين لحظة وأخرى بخصلات شعره الأسمر ، كلما مالت فوقه لتشرف على دراسته .. اما وجهها .. آه !.. لقد كان سعيدا إذ كان لا يمكنه ان يرى وجهها فى جلسته هذه ، وإلا لما استطاع الثبات فوق مقعده كما يفعل الآن .. اما انا فكنت أراه .. وكنت اعض على شفتى حانقا ، إذ أضعت الفرصة التى كان يمكن ان تتاح لى لو اننى قمت بعمل إيجابى بدلا من الاكتفاء بالتحديق فى جمالها الباسم ..

وانتهى الدرس ، دون أن يخلو من أخطاء أخرى .. ولكن التلميذ طالب بجائزته ، فتلقى خمس قبلات على الأقل ، ردها فى سخاء وحرارة !.. وما لبثا أن سارا نحو الباب ، وادركت من حديثهما انهما يوشكان على الخروج فى نزهة بين الأحراش والبرارى .. وبدا لى أن هيرتون ايرنشو سوف يدعو على من صميم قلبه ، ان لم يكن بلسانه ، بالتردى فى أعمق هوة من الجحيم ، لو أظهرت شخصى التعس بجواره وقتئذ !.. وشعرت بحقارتى وخبثى ، فأسرعت بالاختفاء وراء ركن المنزل ، ثم مضيت أبحث عن ملجأ لى فى المطبخ ..

وقد وجدت بابه مفتوحا هو الآخر ، وعنـد الباب جلست صديقتى القديمة نللى دين مشغولة بالحيـاكة وهى تسلى نفسها بالغنـاء .. ولكن أنشودتها كانت تقـاطع من الداخل بألفاظ خشنة تنم عن الازدراء والتذمر ، فى نبرات ابعد ما تكون عن الانغام الموسيقية !

كان شاغل المطبخ يقول ردا على حديث لنللى لم اسمعه :

ـ اننى لأفضل ان اسمع الشتائم تنصب فى اذنى من الصباح حتى المسـاء ، ولا اصغى لمجونك ايتها الشمطاء المتصابية !.. يا للعار !.. انه عار صارخ إذ لا استطيع ان افتح الكتاب المقدس ، بينما ترفعين عقيرتك بتمجيد الشيطان والتفاخر بكل شرورك التى لم يولد مثلها على الارض قط .. آه !.. انك افعى خبيثة ، وتلك الفتاة افعى خبيثة اخرى ، وهذا الغلام المسكين سوف يضيع بينكما !

ثم اردف يقول فى انين :

ـ يا للغلام المسكين !.. لقد قيدتاه بسحرهما .. اننى واثق من ذلك !.. آه .. يا الهى !.. اقض فيهما قضاءك الحق ، فلم يعد بين حكامنا قانون ولا عدالة !

فردت عليه المرأة قائلة :

ـ كلا .. وإلا لكنـا الآن جالستين بين كتـل الخشب المشتعلة !.. ولكن صه ايها العجوز المخرف ، واقرأ كتابك المقدس كأى شخص تقى ، ولا تلق بالك إلى .. اننى اترنم بلحن جميل هو انشودة « عرس الحورية آنى » ، الذى يتحول إلى لحن راقص ..

وكانت مسز دين على وشـك البدء من جديد ، عندما تقدمت نحوها .. وعرفتنى على الفور ، فوثبت قائمة ، وهى تهتف :

ـ الك الله يا مستر لوكوود !.. كيف خطر لك أن تعود بهذه الطريقة ؟.. ان كل شيء مغلق فى « ثرشكروس جرانج » ، وكان يجب عليك ان تنذرنا بمجيئك !

فاجبت :

ـ لقد رتبت الأمر لراحتى هنـاك ، طوال الفتـرة التى سأمكثها .. فسوف ارحل ثانية غدا .. ولكن خبرينى كيف انتقلت إلى هنا يا مسز دين ؟

ـ لقد تركت زيللا الخدمة ، فطلب إلى مستر هيثكليف الحضور ، على اثر رحيلك إلى لندن ، على ان ابقى هنا حتى تعـود .. ولكن ارجوك أن تدخل اولا .. هـل اتيت من « جيمرتون » هذا المساء ؟

ـ بل من « الجرانج » .. فقد اردت أن انهى عملى مع سيدك ، ريثما يعدون لى مكانا للمبيت هنـاك ، لأننى لا احسبنى أجد فرصة أخرى لذلك فى القريب العاجل ..

وقادتنى نللى إلى حجرة الجلوس ، وهى تقول :

ـ اى عمل تريد انهاءه يا سيدى ؟.. لقد خرج الآن ، ولن يعود فى الحال ..

ـ مسألة الإيجار ..

— آه !.. إذن عليك أن تسوى الأمر مع مسز هيثكليف ، او بالأحرى معى .. فانها لم تتعلم بعد كيف تدير شئونها ، وأنا التى اتولى ذلك نيابة عنها ، فليس ثمت من يقوم بذلك غيرى !

فبدت على الدهشة البالغة ، وعند ذلك أردفت تقول :

— آه !.. أرى انك لم تسمع بموت هيثكليف !

فهتفت مشدوها :

— هل مات هيثكليف ؟.. منذ متى ؟

— منذ ثلاثة شهور .. ولكن اجلس أولا ، ودعنى احمل قبعتك إلى المشجب ، وسوف أخبرك بكل شيء عن هذا الامر .. ولكن مهلا .. انك لم تأكل شيئا ، أليس كذلك ؟

— لست أريد شيئا الآن ، فقد أمرت باعداد العشاء فى منزلى .. ولكن اجلسى أنت أيضا .. اننى ما تصورت وفاته قط !.. فدعينى اسمع كيف حدث ذلك .. لقد قلت انك لا تتوقعين عودتهما فى القريب ، فهل تعنين الفتى والفتاة ؟

— نعم .. واننى اضطر إلى تأنيبهما كل ليلة لجولاتهما المتأخرة ، ولكنهما لا يكترثان بى !.. ولكن خذ على الاقل قدحا من جعتك القديمة ، وسوف تفيدك لانك تبدو متعبا ..

ثم أسرعت لتحضره قبل أن استطيع الاعتذار عنـه . وعندئذ سمعت جوزيف يسألها : « أليست فضيحة صارخة أن يكون لها عشاق وهى فى هذا الشطر من حياتها ؟.. ثم

لا تكتفى بذلك ، بل تقدم لهم الشراب من قبو السيد !.. انه لا يطيق عار البقاء ساكنا ليرى ذلك كله » ..

ولكنها لم تنتظر لترد عليه ، بل عادت بعد لحظة تحمل قدحا فضيا بحفه الحبب ، اثنيت على محتوياته الثناء الحميد فى شهية وحمية !.. وبعـد ذلك زودتنى بالبقية الباقية من قصة هيثكليف .. فقد كانت نهايته « غريبة » على حد تعبيرها ..

***

قالت مسز دين :

استدعيت إلى « مرتفعات ويذرنج » بعـد اسبوعين من رحيلك عنا ، فاطعت مسرورة من أجـل كاترين .. إلا ان أول حديث تبادلته معها ، احزننى واكربنى ، إذ وجدتها قد تغيرت كثيرا منذ فراقنا .. ولم يوضح لى مستر هيثكليف الأسباب التى حدت به إلى تغيير رايه بشأن حضورى إلى هنا .. فلم يقل لى إلا انه فى حاجة إلى ، وانه تعب من رؤية كاترين ، واننى يجب أن اتخـذ من البهو الصغير حجـرة لجلوسى ، وآخذها معى .. ويكفيه أن يضطر إلى رؤيتها مرة او مرتين كل يوم .. وكانت تبدو مسرورة للنظام الجديد ، كمـا اننى من جانبى توليت تدريجيا تهريب عدد كبير من الكتب وغيرها من الأشياء التى كانت تتسلى بها فى «الجرانج» ، واخذت امنى النفس بالعيش فى راحة محتملة .. ولكن هذا الوهم لم يدم طويلا .. فبعـد ان كانت كاترين راضيـة ، ما لبثت بعد فترة قصيرة ان غدت سريعة الغضب شـديدة

القلق لا يقر لها قرار .. فقد كانت اولا ، ممنوعة من الخروج من الحديقة ، فكانت شديدة السخط على نحو محزن ، من بقائها حبيسة فى حدودها الضيقة بينما الربيع يدنو حثيثا .. من ناحية اخرى ، فان انشغالى بمهامى المنزلية ، كان كثيرا ما يرغمنى على تركها ، فكانت تشكو ما تعانيه من الوحدة .. كانت تفضل الشجار مع جوزيف فى المطبخ ، على بقائها فى عزلتها الهادئة !.. وكنت لا اعبا بمناوشاتهما ، ولكن هيرتون كان كثيرا ما يضطر إلى الالتجاء إلى المطبخ ايضا ، عندما يريد السيد ان ينفرد بنفسه فى حجرة الجلوس .. ومع انها كانت ، فى بادىء الامر ، اما ان تترك المطبخ عند اقترابه ، أو تساعدنى فى مشاغلى فى هدوء ، متجاهلة رؤيته ومتجنبة مخاطبته ـ ومع انه كان دائما شديد العبوس والصمت بقدر ما يسعه ـ فانها لم تلبث ، بعد فترة من الزمن ، ان غيرت مسلكها واصبحت تعجز عن ان تتركه وشانه .. فكانت تتحدث عنه ، وتعلق على غبائه وكسله ، وتفضى بدهشتها وعجبها من احتماله تلك الحياة التى يحياها ، وكيف يستطيع الجلوس امسية طويلة يحملق فى نار المدفاة ويهوم من النعاس !.. وقد قالت مرة :

ـ انه اشبه بالكلب ، اليس كذلك يا ايلين ؟.. او بحصان عربة الخضر ؟.. انه يقوم بعمله ، ويأكل طعامه ، وينام نوما طويلا !.. لابد ان يكون عقله خاويا موحشا !.. هل تحلم قط يا هيرتون ؟.. وإذا كنت تحلم فى نومك ، فعن أى شىء يجرى حلمك ؟.. آه !.. ولكنك لا تستطيع ان تخاطبنى !

ثم نظرت إليه ، ولكنه لم يفتح فمه او ينظر ثانية .. فاستطردت تقول :

ـ ربما كان يحلم الآن !.. فقد تقوست كتفه فجأة ، كما تفعل كلبتنا « جونو » !.. اساليه يا ايلين !

فقلت :

ـ ان مستر هيرتون سوف يسأل السيد ان يبعث بك إلى حجرتك فورا إذا لم تحسنى الأدب !

فانى لم اره يقوس كتفه فقط ، بل رايته يشد قبضة يده ، كأنه يجد به ميلا إلى استخدامها !

وفى مناسبة أخرى صاحت تقول :

ـ اننى اعرف لماذا لا يتكلم هيرتون قط عندما اكون فى المطبخ .. انه يخشى ان اضحك عليه !.. ما رايك يا إيلين ؟ لقد حدث مرة ان بدا يعلم نفسه القراءة ، ولاننى ضحكت منه ، احرق الكتب وتخلى عن مشروعه .. الم يكن احمق فى ذلك ؟

فقلت لها :

ـ او لم تكونى انت شقية شريرة ؟.. اجيبى على سؤالى هذا !

ـ ربما كنت كذلك .. ولكنى لم اتوقع أن يكون على هذا الغباء .. اسمع يا هيرتون ، لو اعطيتك كتابا الآن ، فهل تأخذه ؟.. سوف احاول ..

ثم تناولت كتابا كانت تطالع فيه فوضعته فوق يده ، ولكنه قذف به بعيدا وغمغم يقول انها إذا لم تتخل عن عبثها فسوف يدق عنقها !

ولكنها قالت :

ـ حسنا .. سوف أضعه هنا ، فى درج المائدة .. اما انا فساذهب لانام ..

ثم همست تطلب منى أن ارقبه لأرى إن كان يقرب الكتاب ، وغادرت الحجرة .. ولكنه لم يرض ان يدنو منه ، فلما انبأتها بذلك فى الصباح ، انتابها كرب عظيم .. ورايت انها حزينة لإصراره على عبوسه وكسله .. كان ضميرها يؤنبها إذ جعلته يفزع من مجرد التفكير فى اصلاح أمره ، وكان لفعالها الحمقاء أثرها الحاسم فى ذلك .. ولكن ذكاءها كان يعمل ويكد فى علاج ما أفسدته .. كنت كلما اشتغلت بكى الثياب ، او تابعت غيره من المهام المنزلية التى لا تحتاج للمشى والتنقل ، والتى لا يمكننى القيام بها فى البهو ، رايتها تعمد إلى كتاب من كتبها البهيجة ، وتروح تقرا لى فيه بصوت عال .. وكانت ، عندما يكون هيرتون هناك ، تقف عادة عند جزء مشوق من الكتاب ، ثم تتركه موضوعا فوق المنضدة او غيرها .. فعلت ذلك وكررته مرارا ، ولكنه كان اشد عنادا من البغل ، وبدلا من أن يلتقط الطعم الذى القته له ، كان فى الليالى المطرة ينصرف إلى التدخين مع جوزيف ، فيجلس كل منهما إلى احد جانبى المدفاة ، اشبه بالإنسان الآلى !.. وكان الاكبر سعيدا بصممه الذى يجعله لا يفهم شيئا من

الهراء الشنيع الذى تقوله كاثرين ، كما كان يطيب له أن يسمى مطالعتها وحديثها ، بينما كان الأصغر يبذل قصارى جهده فى التظاهر بعدم الاكتراث .. أما فى الليالى الصحو الجميلة فكان هيرتون يخرج إلى الصيد ، وتظل كاثرين تتنهد وتتثاءب وتلح على فى أن أتحدث إليها ، ثم تنطلق إلى صحن الدار او الحديقة ، فى اللحظة التى اهم فيها بالكلام .. وكان آخر ما لجات إليه ، أن راحت تبكى وتقول إنها سئمت العيش ، وان حياتها هباء فى هباء ..

وكان مستر هيثكليف يزداد يوما بعد يوم عزوفا عن معاشرة أحد ، حتى أبعد هيرتون نهائيا عن حجرة الجلوس .. وعلى أثر حادث أصابه فى بداية مارس ، أصبح الفتى قطعة ثابتة فى المطبخ ، لأيام عديدة .. كانت بندقيته قد انفجرت بينما كان يجوب التلال وحده ، فمزقت شظية منها ذراعه وفقد قدرا عظيما من دمائه قبل أن يستطيع الوصول إلى المنزل .. وكانت نتيجة ذلك أن قضى عليه ، برغم انفه ، بأن يخلد إلى الهدوء والسكون ، بجوار المدفاة ، حتى استعاد قواه .. وكان مما يوافق كاثرين ويرضيها أن تجده دائما هناك ، حتى لقد ازدادت كراهية لحجرتها فى الطابق العلوى أكثر منها فى أى وقت مضى ، وكانت ترغمنى على أن أجد عملا فى المطبخ ، حتى ترافقنى إليه ..

وفى يوم الاثنين ـ الموافق لعيد الفصح ـ ذهب جوزيف إلى سوق (جيمرتون) ببعض الماشية .. وكنت مشغولة فى المساء بترتيب بعض المفارش فى المطبخ ، وقد جلس ايرنشو

واجما مهموما كعادته ، فى ركن المدفأة ، بينما مضت سيدتى الصغيرة تتلهى برسم الصور على زجاج النافذة ، أو تستبدل ملهاتها هـذه بالغناء الخافت ، أو الصيحات الهامسة ، وباستراق النظر فى سخط وتبرم نحو ابن خالها الذى كان منصرفا إلى التدخين فى ثبات ، وهو لا يحول أنظاره عن الموقد !

فلما أبديت لها اننى لا استطيع ان اسمح لها بالاستمرار فى الوقوف امام النافذة وحجب الضوء عنى ، انتقلت إلى جوار المدفأة .. ولم اكن القى بالا إلى افعالها قبل ذلك ، ولكنى سمعتها وقتئذ تبدأ قائلة :

ـ لقد تبينت يا هيرتون اننى أريد .. انه يسرنى .. اننى اود كثيرا أن تكون ابن خالى الآن ، لولا أنك غدوت دائم التجهم لى والخشونة معى ..

فلم يجبها هيرتون بكلمة ، فاستطردت تقول فى الحاح :

ـ هيرتون .. هيرتون .. هيرتون .. هل تسمعنى ؟

فزمجر فى فظاظة لا تبشر بالخير :

ـ اغربى عن وجهى !

فقربت يدها فى حذر وجذبت الغليون من فمه ، وهى تقول :

ـ دعنى آخذ هذا الغليون ..

وقبل أن يتسع له الوقت ليحاول استعادته ، كان الغليون قد تحطم والقى به وسط النيران المتأججة .. فانطلق يسب ويلعن ، ثم اخرج غليونا آخر ، فصاحت :

ـ انتظر !.. يجب أن تصغى إلى اولا ، ولن أستطيع الكلام وهذه السحب من الدخان تطفو فى وجهى !

فصرخ فى وجهها ، فى ضراوة وشراسة :

ـ هل لك ان تذهبى إلى الشيطان ، وتدعينى وشأنى ؟

ولكنها مضت فى إلحاحها ، فقالت :

ـ كلا .. لن اذهب إلى الشيطان ، ولن ادعك وشأنك .. اننى لا ادرى ما الذى يمكن ان افعله لأجعلك تتحدث معى .. فأنت قد عقدت العزم على الا تفهمنى .. اننى عندما انعتك بالبلاهة ، فلست اعنى شيئا البتة .. لست اعنى اننى احتقرك وازدريك .. فهدىء من روعك ، واولنى شيئا من الاهتمام يا هيرتون !.. انك ابن خالى ، ويجب ان تعترف بوجودى ..

ـ بل لن يكون لى شأن بك ، ولا بكبريائك الدنيئة ، وأفاعيلك الهازئة اللعينة !.. انه لأولى لى أن أذهب إلى الجحيم ، روحا وجسدا ، قبل أن أتبعك بنظرة جانبية مرة أخرى !.. اغربى عن وجهى الآن .. حالا !

فعبست كاترين ، وانسحبت إلى مقعد النافذة وهى تعض على شفتها ، وتترنم بنغمة غريبة تحاول أن تخفى وراءها رغبة متزايدة نحو البكاء ..

فتدخلت بينهما قائلة :

ـ يجب أن تكون صديقا لابنة عمتك يا مستر هيرتون ، ما دامت قد ندمت على شقاوتها معك .. انك سوف تلقى

من صداقتها خيرا عظيما .. سوف تصبح رجلا آخر لو اتخذتها لك رفيقا ..

نصاح :

ـ رفيقا ؟.. بينما هى تمقتنى ولا ترانى أهلا لان امسح حذاءها ؟.. كلا .. كلا .. لن أرضى بالازدراء فى سبيل كسب رضاها ، ولو جعلتنى صحبتها ملكا متوجا !

فلم تقو كاثرين على اخفاء حزنها ، وانبعثت تبكى وهى تقول :

ـ لست انا التى اكرهك ، بل انت الذى تكرهنى !.. انك تمقتنى مثلما يمقتنى مستر هيثكليف ، بل اكثر !

ـ أنت كاذبة لعينة !.. لماذا ، إذن ، كان يثور ضدى غاضبا ، اكثر من مائة مرة ، عندما كنت انحاز لك وادافع عنك ؟.. وذلك بينما كنت تسخرين منى وتحتقريننى و .. عودى إلى مضايقتك لى ، وسوف اذهب إليه واقول انك أزعجتنى حتى أخرجتنى من المطبخ !

فقالت كاثرين وهى تجفف عينيها :

ـ لم اكن اعرف انك دافعت عنى .. ثم اننى كنت تعسة شقية أشعر بالمرارة من الناس جميعا .. ولكنى الآن اشكرك ، وارجو أن تصفح عنى .. فما الذى يمكن ان اصنعه غير ذلك ؟

ثم عادت إلى المدفأة ، ومدت إليه يدها فى اخلاص .. اما هو فقد احتقن وجهه ، وازداد تجهما ، حتى اصبح

كسحابة رعدية توشك أن تنفجر ، وظل يشدد الضغط على قبضتيه وقد تعلقت انظاره بالأرض .. ولابد ان تكون كاثرين قد تبينت ، بغريزتها ، أن ما دفعه إلى هذا المسلك الفظ لا يعدو أن يكون صلابة فى الاعتزاز بالنفس والعناد ، لا كرها ولا بغضا .. لانها بعد أن لبثت مترددة برهة ، انحنت فوقه وطبعت على وجنته قبلة رقيقة !.. وكأنما حسبت الخبيثة الصغيرة أننى لم ارها ، إذ عادت إلى مكانها السابق بجوار النافذة ، فى رصانة وبراءة !.. ولكنى هززت راسى مؤنبة ، فتورد وجهها وهمست تقول لى :

ـ حسنا .. ماذا كان ينبغى ان افعل يا ايلين ؟.. لقد رفض أن يصافحنى ، ورفض أن ينظر إلى ، وكان لابد لى من ان أريه ، بطريقة ما ، اننى اميل إليه ، واننى اريد ان نكون صديقين !

ولست أدرى إن كانت القبلة قد اقنعت هيرتون اخيرا !.. ولكنه حرص على اخفاء وجهه ، لحظة طويلة ، حتى لا يراه أحد !.. فلما رفعه ، كان يبدو فى حيرة يرثى لها ، لا يدرى إلى أين يوجه انظاره !

وانشغلت كاثرين فى تغليف كتاب انيق بورق أبيض نظيف .. وبعد أن ربطته بقطعة من الشريط ، وكتبت عليه « إلى مستر هيرتون ايرنشو » ، رغبت إلى فى ان اكون سفيرة لها ، وان أحمل الهدية إلى المرسلة إليه .. وقالت :

ـ وتخبريه يا ايلين ، انه إذا قبله فسوف احضر وأعلمه

كيف يقرؤه قراءة صحيحة .. اما إذا رفض قبوله ، فسوف اصعد إلى حجرتي ولن اضايقه بعد ذلك قط !

فحملت الكتاب ، واعدت الرسالة على مسامعه ، بينما كانت مخدومتي ترقبني في لهفة وقلق .. إلا ان هيرتون لم يفتح اصابعه المنقبضة ، ولذلك وضعت الكتاب فوق ركبته .. ولكنه لم يقذف به ارضا كذلك !.. فعدت إلى عملي ، بينما توسدت كاثرين ذراعيها فوق المائدة ، حتى سمعت حفيف ورق الغلاف وهو ينزع في رفق ، وعندئذ تسللت إلى حيث كان ابن خالها ، فجلست إلى جانبه في هدوء .. فرايته يرتعد ، ووجهه يضطرم نارا ، وقد فارقته خشونته وفظاظته إلى غير رجعة .. ولكنه لم يستطع ، في بادىء الأمر ، أن يستجمع شجاعته ، وينطق بحرف واحد ردا على نظراتها المتسائلة ، وغمغمتها المتوسلة ، وهي تقول له :

ـ قل انك صفحت عني يا هيرتون .. قلها !.. انك تضفي على سعادة بالغة لو قلت هذه الكلمة الصغيرة ..

فانبعثت منه تمتمة غير مفهومة .. ومضت كاثرين تضيف في تساؤل :

ـ وهل ستصبح صديقي ؟

ـ كلا .. فسوف تخجلين مني كل يوم من أيام حياتك ، وكلما ازداد شعورك بالخجل والعار ، ازددت معرفة بي ، وهذا امر لا اطيق احتماله ..

فعلت وجهها ابتسامة احلى من العسل ، وزحفت إلى جانبه ملتصقة به وهي تقول :

ـ إذن فلن تكون صديقي ؟

ولم اعد اسمع كلاما مفهوما بعد ذلك !.. فلما تلفت ناحيتهما ثانية ، رايت وجهين منحنيين معا فوق إحدى صفحات الهدية المقبولة ، يشع منهما الضياء والبهاء بحيث لم يعد لدي شك في ان المعاهدة قد ابرمت بين الطرفين ، وان العدوين قد انقلبا حليفين متحابين !

كان الكتاب الذي يدرسانه مليئا بالصور الثمينة .. وكانت هذه وجلستهما معا قد سحرتهما بحيث ظلا بلا حراك حتى عاد جوزيف إلى المنزل .. يا للرجل المسكين !.. لقد وقف ذاهلا مشدوها ، وهو يرى كاثرين تجلس على اريكة واحدة مع هيرتون ايرنشو ، وتسند يدها إلى كتفه !.. كان حائرا كيف يطيق فتاه المدلل الاقتراب منها إلى هذا الحد !؟ .. وكان اثر ذلك كله في نفسه من العمق بحيث لم يبد اي تعليق ليلتئذ .. وإنما وجد شعوره متنفسا في تلك التنهدات العميقة التي راح يطلقها وهو ينشر كتابه المقدس الكبير فوق المائدة ، ويضع فوقه اوراقا مالية قذرة كان يخرجها من حافظته ، وهي ثمرة الصفقات التي قام بها يومئذ .. واخيرا نادى إليه هيرتون ، قائلا :

ـ خذ هذه إلى السيد ، يا غلام ، وابق معه هناك .. انني سوف اصعد إلى حجرتي !.. وهذا الحجر لم يعد صالحا او لائقا بنا ، ولابد لنا من ان نهجره ونبحث عن مكان غيره !

فقلت :

ـ تعالى يا كاثرين .. فلابد لنا من ان « نهجره » نحن كذلك .. لقد انتهيت من الكى ، فهل انت على استعداد للانصراف ؟

فنهضت على كره وهى تقول :

ـ الساعة لم تبلغ الثامنة بعد !.. سوف أترك هذا الكتاب فوق رف المدفأة يا هيرتون ، وسأحضر غيره فى الصباح ..

فقال جوزيف :

ـ اى كتاب تتركينه هنا سوف آخذه إلى حجرة الجلوس ، وستكون معجزة لو وجدته ثانية .. فافعلى ما يحلو لك إذن !

فانذرته كاثرين بأن مكتبته سوف تدفع الثمن غاليا إذا ما فقد شىء من كتبها ، ثم انطلقت ترقى الدرج مترنمة بلحن جميل ، بعد ان منحت هيرتون ابتسامة وضاءة وهى تمر به ..

ونمت الألفة التى نشأت بينهما على هذا النحو ، نموا سريعا ، وان صادفتها لحظات من الفتور الوقتى .. فلم يكن ايرنشو لينال الثقافة والتهذيب بكلمة او رغبة .. كما ان سيدتى الصغيرة لم تكن فيلسوفة ، او مثال الصبر والحلم !..

ولكن تفكيرهما كان يتجه إلى هدف واحد : فأحدهما يحب ، ويود ان يضفى تقديره على من يحب ، والثانى يحب ، ويشتهى ان يكون موضع تقدير محبوبه ـ فتكاتفا فى النهاية على بلوغه ..

وهكذا ترى يا مستر لوكوود ان استمالة قلب كاثرين كانت امرا ميسورا .. ولكنى مسرورة الآن لانك لم تحاول ذلك .. ان اقصى آمالى ان ارى هذين الاثنين زوجين .. ولن احسد احدا ليلة زفافهما ، فلن تكون فى انجلترا كلها امراة اعظم سعادة منى !

❋ ❋ ❋

الفصل الثالث والثلاثون

كان ايرنشو ـ غداة ذلك اليوم ـ لا يزال غير قادر على متابعة اعماله العادية ، ومن ثمت كان باقيا فى المنزل ولن يبرحه .. وسرعان ما تبينت ان حجز وديعتى بجانبى ، كما كنت افعل فيما مضى ، سوف يكون امرا غير عملى ، فقد نزلت قبلى ، واسرعت إلى الحديقة حيث كانت قد رات ابن خالها يؤدى عملا بسيطا هناك .. فلما ذهبت لأطلب إليهما الدخول لتناول طعام الافطار ، وجدت انها قد اغرته بتنظيف قطعة كبيرة من الأرض من اشجار العنب البناتى وعنب الديب ، وكانا وقتئذ منهمكين معا فى غرس بعض النباتات التى استجلبت شتلاتها من « الجرانج » ..

وتملكنى الفزع من ذلك الدمار الذى اصاب الحديقة فى نصف ساعة ، لا اكثر .. فقد كانت اشجار العنب البناتى الاسود قرة عين جوزيف ، فاذا كاثرين تركز اختيارها لحوض الزهور التى غرستها ، وسط هذه الاشجار ..

فصحت مرتاعة :

ـ ويلاه !.. سوف ياخذ جوزيف السيد ليرى هذا ، عندما يكتشفه !.. ثم اى عذر يمكنكما ان تبدياه لإطلاق ايديكما فى الحديقة بمثل هذه الجراة ؟.. سوف نرى انفجارا رائعا بسبب ذلك ، وستريان بنفسيكما !.. واننى لأعجب يا مستر هيرتون ، كيف لم تبق لديك ذرة من العقل حتى تقوم بهذا الانقلاب بناء على طلبها !

فاجاب ايرنشو وقد بدا حائرا :

ـ لقد نسيت انها اشجار جوزيف ، ولكننى ساخبره باننى الذى اقتلعتها ..

وكنا نتناول طعامنا دائما برفقة مستر هيثكليف .. فكنت اقوم بدور سيدة الدار ، فى تقديم الشاى وتوزيع الطعام ، ولذلك كان وجودى على المائدة ضروريا ، لا غنى عنه .. وكانت كاثرين عادة تجلس إلى جانبى ، ولكنها يومئذ تسللت قريبا من هيرتون ، وما لبثت ان رايتها لا تتستر فى إظهار صداقتها اكثر منها فى إظهار العداء !

وكنت قد همست لها ، اثناء دخولنا الحجرة معا :

ـ ارجو الا تكثرى من الحديث واللفتات مع ابن خالك ، فان ذلك سوف يغضب مستر هيثكليف حتما ، ويجعله يثور فى وجهيكما معا ..

فاجابتنى : « لن افعل شيئا من ذلك ! » .

ولكنها ، فى اللحظة التالية ، كانت تلتصق به ، وبدات تعابثه وتلقى بزهور الاقحوان فى طبق الثريد امامه ..

ولم يجرؤ وقتئذ على ان يخاطبها بكلمة .. بل كاد لا يجرؤ على النظر إليها .. ومع ذلك ظلت ممعنة فى عبثها حتى كادت تستثير الضحك منه مرة او اثنتين .. فعبست فى وجهها ، وعندئذ القت على السيد نظرة سريعة لترى إن كان يلحظها .. ولكنه كان مشغول الفكر باشياء اخرى غير رفقاء الطعام ، كما بدا جليا فى محياه .. فلزمت كاثرين الرصانة لحظة ،

وهى تتفرس فيه بنظرات ثاقبة ، وهيبة عميقة .. وما لبثت ان عادت إلى مجونها .. واخيرا افلتت من هيرتون ضحكة مكتومة .. فاجفل مستر هيثكليف بغتة ، وراح يتصفح وجوهنا بنظرة سريعة .. وقابلت كاثرين نظراته بنظرتها العادية المليئة بالسخط ، بل بالتحدى ، التى كان يكرهها منها .. فصاح بها :

ـ من حسن حظك انك بعيدة عن متناول يدى .. أى شيطان يتملكك حتى تحملقى فى وجهى دائما بهاتين العينين الجهنميتين ؟.. اخفضى عينيك !.. وإياك ان تذكرينى بوجودك مرة أخرى .. لقد ظننتك برئت من الضحك !

فغمغم هيرتون :

ـ لقد كنت أنا ..

فسأله السيد :

ماذا تقول ؟

فارخى هيرتون انظاره إلى طعامه ، ولم يكرر اعترافه ثانية .. فظل مستر هيثكليف يرمقه بأنظاره لحظة ، ثم عاد إلى متابعة افطاره صامتا ، وإلى استئناف الامعان فى التفكير ، بعد ان قطعته هذه الواقعة .. وكنا قد أوشكنا على الفراغ من الطعام ، وقد تعقل الفتى والفتاة فجلسا هادئين متباعدين ، حتى توقعت ان هذه الجلسة لن تشوبها شائبة بعد ذلك ، عندما ظهر جوزيف فى الباب ، وقد بدا فى شفته المرتعشة ، وعينيه الثائرتين ، أن العدوان الذى وقع على خمائله الثمينة



ولكنها ، فى اللحظة التالية ، كانت تلتصق به ، وبدات تعابثه وتلقى بزهور الاقحوان فى طبق الثريد أمامه ..

قد كشف امره .. ولابد انـه قد راى كاثى وابن خالهـا واقفين عند تلك البقعة قبل ان يذهب لفحصها ، لانه كان يتكلم وفكاه يصطكان كفكى بقرة تجتر طعامهـا ، فيجعلان من العسير فهم ما يقوله عندما بدا :

ـ يجب ان آخذ اجرى ، ويجب ان أرحل من هنا !.. لقد كنت اود ان اموت فى المكان الذى خدمته ستين عاما ، وظننت ان بوسعى ان آخـذ كتبى وكل ما لدى من اشياء اخرى ، إلى العلية الصغيرة ، فاترك لهما المطبخ يمرحان فيه كما يريدان ، وانشد الهدوء والسكينة فى مكان آخر .. كان من العسير ان اتخلى عن مدفاتى وجلستى بجانبها ، ولكنى ظننت اننى أستطيع أن افعل ذلك .. اما الآن فقـد أخذت منى حديقتى ، وهذا شىء لا استطيع ان احتمله ايها السيد .. اننى اقولها لك من كل قلبى .. انك قد تحنى راسك تحت النير ، اما انا فلست معتادا عليه ، ورجل عجوز مثلى لا يعتاد سريعا على النظم الحديثة !.. انى افضل ان اكسب لقمتى وحسائى من فأس ومطرقة اشتغل بهما على قارعة الطريق !

فقاطعه هيثكليف قائلا :

ـ مهلا .. مهلا ايها الغبى !.. اوقف هذا الطوفان حالا ! .. ما الذى يثير شجونك ؟.. ولكنى لن اتدخل فى اى شجار بينك وبين نللى ، فلو قذفت بك إلى داخل الموقد لما اكترثت !

ـ انها ليست نللى !.. فما كنت لاشكو من نللى ، ولو انها اصبحت الآن خبيثة هى الاخرى .. شكرا لله !.. فهى لا ترضى بأن تسلب أحدا روحه !.. فلم تكن قط رقيقة الشعور مثلما هى الآن ، ولكن ماذا تستطيع ان تفعل وسط الشرور التى تحيط بهـا !.. انهـا « ملكتك » الخبيثة الشريرة التى سحرت فتانا بعينيها الجريئتين ، ووسائلها الدنيئة ، حتى جعلته .. لا .. ان قلبى يتمزق !.. جعلته ينسى كل ما فعلته له ، وما صنعته به ، فيذهب ليزيل اكبر اشجار العنب البناتى فى الحديقة !

ثم انخرط فى البكاء كالنساء ، وقد غلبه احساسه بمرارة الاهانة التى لحقته ، وجحود ايرنشو والحالة الخطيرة التى بلغهـا !

فقال مستر هيثكليف :

ـ هل ذلك الابله ثمل ؟.. اهو انت الذى يشكو منه يا هيرتون ؟

فاجاب الفتى :

ـ لقد نزعت شجرتين او ثلاثا ، ولكنى سوف اعيدهما ثانية ..

فساله السيد :

ـ ولمـاذا نزعتها ؟

عنـدئذ رأت كاترين من الحكمة أن تمد لسانها !.. فصاحت :

ـ لقد اردنا ان نزرع بعض الزهور هناك .. وانا المسئولة الوحيدة عن ذلك ، لاننى طلبت إليه ان يفعله ..

فقال حموها فى دهشة بالغة :

ـ من الذى اذنك ، بحق الشيطان ، ان تمسى شيئا فى هذا المكان ؟

ثم تحول إلى هيرتون ، واردف :

ـ ومن الذى امرك بأن تطيعها ؟

فلم ينبس الاخير بكلمة ، وتولت ابنة عمته الإجابة فقالت :

ـ ما ينبغى لك ان تحقد علينا من اجل بضع ياردات من الأرض اجد فيها زينة لى ، بعد ان استوليت على كل ارضى !

ـ ارضك ؟.. متى كانت لك ارض ايتها الحقيرة الوقحة ؟

فاستطردت تقول وهى تقابل نظراته النارية فى ثبات وتقضم قطعة من الكعك بقيت من افطارها : « ونقودى ! »

فصاح بها :

ـ اخرسى !.. اذهبى من هنا ..

فتابعت التعسة الطائشة كلامها :

ـ وارض هيرتون وماله !.. لقد اصبحت وهيرتون صديقين ، وسوف اخبره بكل شىء عنك !

وجمد السيد فى مكانه مشدوها لحظة ، وقد امتقع وجهه ، وما لبث أن نهض من مكانه ، دون ان يرخى انظاره عنها طيلة

هذا الوقت ، وبدت فى وجهه لمحة من الحقد المميت .. ولكنها عاجلته قائلة :

ـ إذا ضربتنى ، فسوف يضربك هيرتون !.. وخير لك ان تعود إلى مجلسك إذن !..

فانفجر هيثكليف كالرعد القاصف :

ـ إذا لم يخرجك هيرتون من الحجرة الآن فسوف اضربه حتى أقضى عليه .. أنت ايتها الساحرة اللعينة !.. اتجرؤين على التفاخر باثارته ضدى ؟.. اخرجها من هنا .. الا تسمع ؟.. القها فى المطبخ !.. اننى سوف اقتلها ، يا ايلين دين ، إذا تركتها تقع تحت نظرى ثانية !

فحاول هيرتون اقناعها بالخروج همسا ، ولكن هيثكليف صاح به فى وحشية :

ـ جرها إلى الخارج !.. اسحبها على الأرض !.. هل انت واقف لتكلمها ؟

ثم دنا منها لينفذ أمره بنفسه .. فقالت كاثرين :

ـ انه لن يطيعك بعد الآن ، ايها الرجل الشرير !.. وسوف يمقتك عاجلا مثلما أمقتك !

فغمغم الشاب مؤنبا :

ـ صه !.. صه !.. إننى لا اقبل ان اسمعك تخاطبينه على هذا النحو !.. هيا بنا ..

فصاحت به : ولكنك لن تدعه يضربنى ؟

فهمس لها فى لهفة : « تعالى إذن ! »

ولكن فات الأوان .. فقد أمسك بها هيثكليف ، ثم قال لابرنشو :

ـ والآن ، اخرج انت !.. فهذه الساحرة اللعينة قد اثارتنى هذه المرة وانا لا احتمل الإثارة ، وسوف اجعلها تندم على ذلك طيلة حياتها ..

وكان قد دس يده فى شعرها وقبض على ناصيتها . فحاول هيرتون ان يخلص غدائرها من قبضته ، وهو يتوسل إليه الا يؤذيها هذه المرة .. وكانت عينا هيثكليف السوداوان تومضان شررا ، وقد بدا عليه انه يهم بتمزيق كاثرين اربا .. واشتد بى الانفعال والهلع حتى عزمت على المخاطرة بانقاذها ، عندما رايت اصابعه تلين فجاة ، ورايته ينقل قبضته من راسها إلى ذراعها ، وهو يحدق فى وجهها فى امعان غريب .. وما لبث ان وضع يده فوق عينيها ، ووقف لحظة وقد بدا عليه انه يستعيد سيطرته على نفسه ، ثم تحول ثانية إلى كاثرين قائلا فى هدوء مفتعل :

ـ يجب أن تتعلمى كيف تتحاشين اثارة انفعالى ، وإلا قتلتك حقا يوما من الايام !.. اذهبى الآن مع مسز دين ، وابقى معها ، واقصرى قحتك وسلاطة لسانك على أذنيها !.. اما هيرتون ابرنشو ، فلو رايته يصغى إليك ويعمل بوحيك ، فسوف ابعث به ليبحث عن لقمته حيث يستطيع ان يجدها !.. ان حبك سوف يجعل منه طريدا متسولا .. والآن ، خذيها يا نللى ، واتركونى جميعا .. دعونى !.. دعونى !

فأخذت سيدتى الصغيرة إلى الخارج ، وكانت فرحتها بالخلاص من يده قد غلبت رغبتها فى المقاومة .. وتبعنا الآخر ، وبقى مستر هيثكليف وحده فى الحجرة حتى موعد الغداء .. وكنت قد نصحت لكاثرين ان تتناول غداءها فى الطابق العلوى ، ولكنه ما ان رأى مقعدها خاليا حتى أرسلنى لاستدعائها .. ولم يخاطب احدا منا بكلمة ، ولم يتناول من الطعام إلا قليلا ، ثم انصرف على الأثر ، قائلا انه لن يعود إلا فى المساء ..

وقد اقام الصديقان فى حجرة الجلوس اثناء غيبته ، حيث سمعت هيرتون يصد ابنة عمته فى عبوس ، عندما همت بأن تدلى باسرار مسلك حميها نحو والد الشاب ، إذ قال لها انه لن يحتمل كلمة للحط من قدر هيثكليف .. فلو كان الشيطان نفسه ، فان ذلك لا يعنى شيئا البتة !.. وسوف يقف إلى جانبه .. واضاف انه يفضل ان تعاود إهانتها له ، كما اعتادت من قبل ، على أن تتحول بها إلى مستر هيثكليف .. فازدادت كاثرين عنادا عندما سمعت ذلك ، ولكنه وجد الوسيلة الناجعة ليجعلها تمسك لسانها ، بان سالها كيف يكون شعورها إذا سمعته يقول سوءا عن والدها ؟.. وعندئذ ادركت كاثرين ان ابرنشو كان يعد كرامة السيد من كرامته هو ، وانه كان متعلقا به بصلات أقوى من ان يستطيع العقل تحطيمها .. كانت تربطه به سلاسل صهرتها العادة وقساها طول العشرة بحيث يكون من القسوة أن تحاول فكاكها .. وقد اظهرت كاثرين ، منذ ذلك الحين ، من طيبة القلب ما جعلها تتجنب كل شكوى او تذمر ، بل وكل كلمة تنم على

كراهيتها لمستر هيثكليف ونفورها منه .. واعترفت لى بعد ذلك بأسفها على أن حاولت افساد العلاقة بينه وبين هيرتون .. والحق أننى لا اعتقد انها همست بحرف واحد فى مسامع هذا الاخير ضد مضطهدها بعد ذلك ..

فلما انتهى ذلك الخلاف الطفيف بينهما ، ارتدا صديقين ثانية ، وانهمكا بعد ذلك فى مشاغلهما العديدة ، كتلميذ ومعلمته .. واتيت لأجلس معهما ، بعد ان فرغت من عملى ، فشعرت بالراحة والسكينة عندما كنت أرقبهما ، بحيث غفلت عن انقضاء الوقت سريعا .. وانت تعلم ، يا مستر لوكود ، انهما كلاهما يعدان طفلين لى إلى حد ما .. وقد ظللت طويلا فخورة بأحدهما ، وانى واثقة الآن من ان الآخر سوف ينال من نفسى تلك المنزلة نفسها .. ان طبيعته الأمينة المتوثبة الذكية قد نفضت عنها سريعا سحب الجهل والانحطاط التى نشأ فيها ، وكان مديح كاثرين الصادق المخلص خير حافز له على المثابرة .. وكأنما اضفى تألق ذهنه تألقا جديدا على محياه ، واضاف إليه حيوية وثابة ونبلا أصيلا .. حتى كدت لا اتصور انه ذلك المخلوق نفسه الذى رايته يوم اكتشفت سيدتى الصغيرة فى « مرتفعات ويذرنج » ، بعد رحلتها إلى صخور « بنستون كراجز » .. وفيما كانا يعملان ، وانا ارمقهما فى اعجاب ، كان الغسق يقترب فى خطى حثيثة ، ويأتى معه بالسيد .. وكان مقدمه علينا بغتة ، وعلى غير انتظار ، إذ دخل من الباب الامامى ، والقى على ثلاثتنا نظرة شاملة قبل ان نستطيع ان نرفع رؤوسنا وننظر إليه .. فقلت

فى نفسى : « حسنا .. ما من منظر أكثر بهجة واقل ضررا كهذا الذى يشملنا ، ومن العار حقا ان يفكر فى انتهارهما » .. كان وهج النار الاحمر يتألق على الراسين الجميلتين ، ويكشف عن وجهين يفيضان بلهفة الطفولة واهتمامها .. فمع أنه فى الثالثة والعشرين ، وهى فى الثامنة عشرة ، إلا أن كلا منهما كان لديه الكثير من الأشياء الجديدة عليه فى الاحاسيس والعلم بحيث لا يكابد او يظهر تلك الميول المنبعثة عن نضج واع خال من الأوهام ..

ورفعا عيونهما معا لتلتقى بنظرات مستر هيثكليف .. ولعلك لم تلاحظ قط أن عيونهما متشابهة تماما ، وانها نفسها عينا كاثرين ايرنشو .. فليس لكاثرين الحالية اى شبه بها غير ذلك ، إلا فى جبهتها العريضة ، وفى تقوس انفها بما يجعلها تبدو متعجرفة متعالية ، سواء ارادت ذلك ام لم ترده .. اما هيرتون ، فان شبهه بعمته ابعد مدى .. شبه اعتاد ان يبدو غريبا دائما .. أما فى تلك اللحظة خاصة فكان مذهلا إلى حد بعيد ، لان حواسه كانت متوفزة ، وملكاته العقلية قد نشطت نشاطا غير عادى .. واحسب أن هذا الشبه قد غل يدى مستر هيثكليف واضعفه !.. فقد سار إلى المدفأة فى انفعال واضح ، ثم ما لبث ان سكن وهدأ عندما نظر إلى الفتى .. او لعل انفعاله قد تغيرت بواعثه ومظاهره ، لأنه كان ما يزال باديا فى محياه بعد .. وتناول الكتاب من يد هيرتون ، والقى نظرة على الصفحة المفتوحة ، ثم أعاده إليه دون أن يفوه بأية ملاحظة .. كل ما فعله هو أن اشار إلى

كاثرين بالانصراف !.. اما رفيقها فقد تلكأ قليلا قبل أن يمضى فى اثرها ، وكنت على وشك ان أتبعهما ، عندما أشار إلى أن أبقى جالسة مكانى ..

وبعد ان تحدث لحظة عن المنظر الذى شهده للتو ، بدا يقول :

ـ انها نهاية تافهة ، أليس كذلك ؟.. أليست خاتمة سخيفة لكل ما بذلت من جهود عنيفة ؟.. لقد جئت بالروافع والمطارق لاهدم هذين البيتين واخربهما ، ورحت ادرب نفسى لاكون قادرا على العمل مثل هرقل ، حتى إذا ما استمددت لكل شىء ، واصبح فى يدى ، إذا بالرغبة فى رفع حجر واحد من احد السقفين تتلاشى كان لم تكن !.. ان اعدائى القدماء لم يهزمونى .. وقد تكون هذه الآونة هى اللحظة الملائمة لكى أثار لنفسى من ذريتهم .. وفى وسعى ان افعل ذلك .. بل ما من احد يستطيع أن يحول دونه .. ولكن اين الفائدة فى ذلك ؟.. اننى لم اعد ابالى بان اضرب ضربتى .. وليس فى وسعى ان أجشم نفسى مشقة رفع يدى .. لكم يبدو ذلك كما لو كنت قد ظللت اعمل واكد طول هذا الوقت اكى اقدم عرضا رائعا للشهامة والمروءة !.. ولكن ذلك ابعد ما يكون عن حالتى .. انما الحقيقة هى اننى فقدت القدرة على الاستمتاع بتدميرهما ، واننى اصبحت اضن بنفسى عن التدمير والتخريب بغير ثمرة ..

ان هناك تبدلا غريبا فى طريقه إلى يا نللى .. وانا الآن أجتاز ظله .. لقد فقدت كل اهتمام بحياتى اليومية العادية ،

بحيث اصبحت لا أكاد اذكر طعامى وشرابى .. ان هذين الاثنين اللذين غادرا الحجرة الآن هما وحدهما اللذان يحتفظان بمظهر مادى محدد أمامى .. وهذا المظهر سبب لى ألما يظل يتزايد حتى يبلغ مبلغ العذاب .. اما هى ، فلست اود ان أتكلم عنها ، ولا أريد ان افكر فيها ، ولكنى اتمنى من كل قلبى لو انها كانت مختفية عن انظارى ، فان وجودها لا يثير فى نفسى إلا مشاعر تبعث على الجنون . .ولكنه هو ، يحرك مشاعرى على نحو يختلف عن ذلك تماما ، ولو استطعت ـ دون ان ابدو مجنونا ـ لما كنت أراه بعد ذلك قط ..

ولاحت على شفتيه ابتسامة مغتصبة باهتة ، وهو يستطرد قائلا :

ـ وربما ظننتنى مشرفا على الجنون لو حاولت ان اصف لك آلاف الصور عن ذكريات الماضى وافكاره التى يوقظها او يجسدها أمامى .. ولكنى أعلم أنك لن تتحدثى بما سوف اقوله لك ، كما ان عقلى طال عليه الامد فى عزلته وانطوائه على نفسه ، حتى اشتاق اخيرا إلى أن يشرك معه غيره ..

منذ خمس دقائق كان هيرتون امامى صورة لشبابى تجسدت أمامى ، ولم يكن بالنسبة لى كائنا بشريا !.. كنت اراه واحس به بطرق مختلفة ، حتى اصبح من المحال ان ابداه الكلام بطريقة معقولة !.. فان شبهه المروع بكاثرين[1]

(١) يقصد كاثرين رفيقة صباه وأم كاثرين الشابة .

بادىء ذى بدء ، يجعله مقترنا بها إلى حد مخيف .. ومع ذلك فهذا الذى قد تحسبينه أقوى الأسباب لشل خيالى ، انما هو فى الواقع اقلها شانا !.. وإلا فاى شىء حولى لا يقترن بها ؟.. واى شىء حولى لا يذكرنى بها ؟.. اننى لا استطيع ان انظر إلى ارض هذه الحجرة دون ان ارى ملامحها مصورة فى كل مربع منها !.. اراها فى كل سحابة ، وفى كل شجرة.. اراها تملأ الهواء بالليل ، والمحها فى كل شىء بالنهار .. تحيط بى صورتها اينما كنت .. ان وجوه الرجال والنساء العاديين ـ بل اساريرى نفسها ـ تهزأ منى وتسخر بى بما تبديه من شبه بها !.. ان الدنيا بأسرها مجموعة مخيفة من التقارير تثبت انها لا تزال موجودة ، واننى قد فقدتها !.. حسنا .. لقد كانت صورة هيرتون شبح غرامى الخالد ، ومحاولاتى الضارية للتعلق بحقوقى .. وهوانى ، وكبريائى ، وسعادتى ، وعذابى !

ولكن من الجنون أن اردد هذه الخواطر على مسامعك .. كل ما فى الأمر انها سوف تجعلك تدركين لماذا كنت لا ارى فى صحبته خيرا ، برغم نفورى من البقاء بمفردى دائما .. بل انها تزيد فى عمق الألم الدائم الذى اكابده !.. وتساهم فى جعلى غير مكترث لعلاقته بابنة عمته .. فالواقع اننى لم اعد قادرا على ان أوليهما اى اهتمام .. » .

ـ ولكن ما الذى تعنيه بان تغييرا ما سوف يحل بك يا مستر هيثكليف ؟

قلت ذلك وقد أقلقتنى حالته ، برغم أنه لم يكن فيما ارى معرضا لخطر الجنون أو الموت ، كان فى عنفوان قوته وصحته .. اما عن حالته العقلية ، فانه كان منذ طفولته يجد متعته فى الاستغراق فى الأفكار السوداء ، والتعلق بأوهام عجيبة !.. وربما كان مصابا بذلك النوع من الجنون الذى يتركز فى شىء واحد .. فى موضوع معبودته الراحلة !.. ولكن قواه العقلية ، فى غير ذلك من الأمور جميعا ، لم تكن تقل سلامة عن قواى ..

فأجاب :

ـ اننى لن اعرفه إلا عند مقدمه .. كل ما هنالك اننى احس به فى غموض ..

ـ الا تحس بأعراض المرض ؟

ـ كلا يا نللى . ليس بى شىء من ذلك ..

ـ الا تكون ، إذن ، خائفا من الموت ؟

ـ خائفا ؟.. كلا .. فما بى خوف من الموت ، ولا انا اتوقعه ، ولا ارجوه واتمناه .. ولماذا ينبغى أن تساورنى هذه المخاوف ؟.. اننى مع تكوينى القوى ، ونظام معيشتى المعتدل ، وعدم تعرضى للمخاطر فى أعمالى ، كل ذلك ينبغى معه ـ بل يحتمل أن يحدث فعلا ـ ان اظل فوق سطح الأرض حتى لا تبقى فى رأسى شعرة سوداء !.. ومع ذلك فلا ارانى قادرا على الاستمرار على هذه الحال .. ان على الآن ان اذكر نفسى بان اتنفس ، واكاد اذكر قلبى بأن ينبض!.. ان الأمر معى يشبه زمبركا صلبا تثنى إلى الخلف..

فلو قمت بأقل عمل لا يدفعنى إليه عزم ممين ، فانما اساق إلى ذلك سوقا .. ولو انتبهت إلى شىء ، حى او ميت ، لا يقترن عندى بفكرة عامة فانما افعل ذلك برغم انفى .. لم تبق لى إلا رغبة وحيدة يتلهف كيانى كله وحواسى كلهـا شوقا إلى بلوغها .. وقد ظلت تتوق إليها وتتلهف عليها طويلا ، وفى غير تردد او احجام ، بحيث أصبحت مقتنعا بأننى سوف أبلغها ، وفى أقرب وقت ، لأنها فغرت فاها ، والتقمت وجودى كله !.. ان تعجلى وقوعها قد ابتلعنى وأطبق فمه على .. ولا تظنى ان هذا الاعتراف قد اراحنى ، او أزاح ما يثقل كاهلى ، وإنما هو تفسير لأشياء اخرى فى مسلكى وتصرفاتى كانت غامضة مبهمة .. آه يا إلهى !.. لقد طال الصراع ، فليته يبلغ نهايته !

وبدا يذرع الحجرة ذهابا وجيئة ، ويتمتم بأشياء رهيبة غير مفهومة ، حتى ملت إلى الاعتقاد ، مثلما قال ان جوزيف قد اعتقده ، بأن الضمير قد أحال قلبه إلى جحيم دنيوى !.. وعجبت كثيرا كيف يمكن ان ينتهى ذلك كله .. فعلى الرغم من انه قلمـا كشف فى المـاضى عن حالته العقلية ، ولو فى نظراته ، فلست اشك فى ان هـذه هى طبيعته العادية .. وهو نفسـه الذى يؤكدها ، لأنه ما من إنسـان كان يستطيع ان يتكهن بالحقيقة ، من مظهره العام .. وانت نفسك ، يا مستر لوكوود ، لم تدرك شيئا من حقيقته عندما رأيته ، وقد كان فى الفترة التى اتحدث عنها لا يختلف فى شىء عما كان وقتئذ ، إلا انه كان اكثر ولعا بالوحدة ، واقل كلاما مع الناس .

***

الفصل الرابع والثلاثون

ظل مستر هيثكليف عدة أيام بعد تلك الأمسية يتجنب لقاءنا فى أوقات الطعام . .على انه لم يكن يرضى بأن يستبعد هيرتون وكاثى من محضره بصورة ظاهرة .. كان ينفر من الخضوع لمشاعره والاستكانة لأحاسيسه ، فاختار ان يغيب ساعة الطعام .. وكان يبـدو ان وجبة واحدة يتناولها فى الاربع والعشرين ساعة كافية لتقيم اوده ..

وبعد ان اوت العائلة كلها إلى الفراش ذات ليلة ، سمعته يهبط الدرج ، ويغادر البيت من الباب الأمامى .. ولم أسمعه يعود إلى الدار ، ثم تبينت فى الصباح انه ما يزال فى الخارج .. كنا وقتئذ فى شهر ابريل ، وكان الجو صحوا دافئا ، واشجار التفاح القصيرة عند الجدار الجنوبى مليئة بالأزهار والبراعم .. فلما فرغنا من طعام الافطار ، الحت على كاثرين فى ان احضر شغلى ومقعدى ، واجلس تحت اشجار الشربين فى الطرف الاقصى من المنزل ، ثم اغرت هيرتون ـ الذى كان قد شفى تماما من اصابته ـ بأن يحفر ويسوى حديقتهـا الصغيرة ، التى نقلت إلى ذلك الركن على اثر شكوى جوزيف وبسببها .. وكنت انعم فى مجلسى بعبير زهور الربيع حولى ؛ والزرقة الجميلة الهادئة فوق راسى ، عندما رجعت سيدتى الصغيرة ـ وكانت قد ذهبت لتحضر بعض جذور عنب الديب من خمائلهـا بالقرب من البـوابة ليغرساها حول احواض الزهور ـ تحمل القليل منها ، واخبرتنا ان مستر هيثكليف عاد إلى الدار ، ثم اضافت وقد علت الحيرة أساريرها :

— وقد كلمنى !

فسألها هيرتون :

— وماذا قال لك ؟

— طلب إلى أن أبتعد عنه بأسرع ما يمكننى !.. ولكنه كان يبدو مختلفا كل الاختلاف عن مظهره المعتاد بحيث وقفت لحظة أحدق النظر فى وجهه ..

— وكيف ؟

— انه يكاد يكون مرحا وضاء المحيا .. كلا .. ان ذلك لا يكفى لوصفه .. كان شديد الانفعال ، يطفح وجهه بشرا وسرورا ضاريا ..

فقلت متظاهرة بعدم الاكتراث :

— ان النزهات الليلية تسليه كثيرا إذن ..

ولكنى فى الحقيقة كنت أشد منها دهشة ، وتلهفت على التحقق من صدقما قالته .. فان رؤية السيد مرحا مسرورا ليست من المشاهد العادية التى يراها المرء كل يوم .. وانتحلت عذرا لقيامى ، ثم مضيت إلى الداخل .. وكان مستر هيثكليف يقف فى فتحة الباب ، شاحب الوجه ، يرتعد بدنه رعدة واضحة .. ولكن من المحقق أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب يفيض سرورا ، ويبدل شكل وجهه تبديلا ..

فقلت :

— الا تريد بعض الطعام لإفطارك ؟

وكنت أريد ان اكتشف أين قضى ليلته ، ولكنى لم أرد سؤاله مباشرة ، فأردفت أقول :

— لابد ان تكون جائعا الآن بعد أن ظللت تجول فى الخارج الليل بطوله ..

فأشاح بوجهه وقال فى شىء من الازدراء كأنما حدس محاولتى فى استكناه سبب مرحه وانطلاقه :

— كلا .. لست جائعا !

فشعرت بالحيرة والارتباك ، ولم ادر ما إذا كانت الفرصة سانحة لالقى عليه قليلا من النصح والارشاد ، فقلت :

— لا اظن من الصواب ان تقضى الليل هائما على وجهك فى الخارج ، بدلا من أن تقضيه فى الفراش ، فان ذلك ليس من الحكمة فى شىء ، فى هذا الفصل الشديد الرطوبة .. وفى ظنى انك سوف تصاب ببرد أو حمى ، فان بك شيئا ما الآن !

— ليس بى الا ما أطيق احتماله ، وبسرور عظيم ، على أن تتركينى وشأنى .. أمضى إلى الداخل ، ولا تضايقينى !

فأطعته .. ولاحظت أثناء مرورى بجانبه ان انفاسه كانت سريعة متلاحقة كأنفاس القطط .. فقلت لنفسى :

— نعم .. سوف تصيبه نوبة من المرض .. ولكنى لا افهم ما الذى كان يفعله ..

وفى ظهر ذلك اليوم ، جلس معنا على مائدة الغداء ، وتلقى من يدى طبقا مليئا بالطعام ، كأنما يريد ان يعوض ما فاته فى صومه الماضي .. ولم يفته ان يشير إلى حديثى معه فى الصباح ، فقال :

ـ ليس بى برد او حمى يا نللى .. وسوف ترين اننى على استعداد لالتهام الطعام الذى قدمته لى !

وتناول شوكته وسكينته ، وهم بأن يبدأ طعامه ، عندما بدا كأنما غاضت شهيته فجأة ، فوضعهما أمامه على المائدة ثانية ، وراح يتطلع نحو النافذة فى لهفة ، وما لبث أن نهض وانطلق إلى الخارج .. ورأيناه يذرع الحديقة ذهابا وجيئة بينما رحنا نتم طعامنا ، وعندئذ قال ايرنشو انه سوف يذهب ويسأله عن سبب عدم رغبته فى الطعام ، فقد ظن اننا كدرناه بطريقة ما ..

فلما رجع صاحت كاثرين تسأله :

ـ حسنا .. هل هو قادم ؟

ـ كلا .. ولكنه ليس جائعا .. وهو يبدو وقد غمره سرور نادر الوقوع حقا .. غير انه ضاق بى ذرعا عندما خاطبته مرتين ، فطلب إلى ان اتركه والحق بك ، وأبدى عجبه كيف يمكننى ان أنشد صحبة اى انسان غيرك !

ووضعت طبقه فوق حاجز المدفأة ليظل ساخنا .. وقد عاد إلى الحجرة بعد ساعة او ساعتين عندما كانت خالية منا .. ولكنه لم يبد اكثر هدوءا وسكينة .. كانت تبدو

تحت حاجبيه الأسودين تلك النظرة الغريبة نفسها التى تفيض بهجة وسرورا ، وهى نظرة غريبة شاذة حقا .. ثم ذلك اللون الشاحب نفسه ، كأن وجهه قد خلا من الدماء .. كان فمه منفرجا ، وأسنانه بادية للعيان ، فى نوع من الابتسام الغريب ! .. وكان بدنه كله يرتجف ، لا كما يرتجف المرء من البرد او الضعف ، بل كما يرتج وتر مشدود إلى أقصى احتماله .. كان ما به هزات قوية ، أكثر منها رعدة عادية ..

وقلت لنفسى اننى سوف أسأله عما دهاه .. ومن غيرى أخلق بسؤاله ؟ .. فهتفت قائلة :

ـ هل تلقيت اية أنباء سارة يا مستر هيثكليف ، فانك تبدو منتعشا إلى حد غير مألوف ؟

ـ ومن أين تأتينى الأنباء السارة ؟ .. إننى منتعش بسبب الجوع ، ولكنى ، فيما يبدو ، لا ينبغى أن آكل شيئا ..

ـ ان طعامك هنا على المدفأة ، فلماذا لا تتناوله ؟

فغمغم فى عجلة :

ـ لست أريده الآن ، وسوف انتظر حتى العشاء .. ثم اننى ارجوك يا نللى للمرة الأخيرة ، أن تنذرى هيرتون والاخرى بأن يبعدا عن طريقى .. اننى لا اريد أن يزعجنى أحد ، واريد ان تكون لى هذه الحجرة وحدى ..

فسألته :

ـ هل من سبب جديد لهذا الابعاد ؟ .. خبرنى لماذا تبدو غريبا إلى هذا الحد يامستر هيثكليف ؟ .. وأين كنت

في الليلة الماضية ؟ .. انني لا ألقي عليك هذه السؤال لمجرد الفضول وحب الاستطلاع ، ولكن ..

فقاطعني ضاحكا :

ـ بل انك تلقين هذا السؤال بأشد ما يكون الفضول وحب الاستطلاع .. ومع ذلك فسوف أجيب عنه .. لقد كنت في الليلة الماضية على أعتاب الجحيم !.. اما اليوم فانني على مرمى البصر من جنتي !.. ان عيني مركزتان عليها ، ولا يبعدني عنها غير ثلاثة اقدام !.. والآن ، خير لك ان تنصرفي ، ولن ترى أو تسمعي شيئا يفزعك ، ولو امتنعت عن التجسس والتلصص !

فانصرفت خارجة ، بعد ان نظفت الأرض والمائدة ، وأنا اشد ما أكون حيرة واضطرابا ..

ولم يفارق حجرة الجلوس ثانية بعد ظهر ذلك اليوم ، كما لم يتطفل احد على وحدته وعزلته .. حتى إذا ما بلغت الساعة الثامنة ، قدرت ان من الأفضل ان احمل إليه عشاءه وشمعة موقدة ، برغم انه لم يدعني .. فرأيته مستندا إلى حافة نافذة مفتوحة ، ولكنه لم يكن ينظر إلى الخارج ، بل كان يدير وجهه نحو داخل الحجرة المعتمة .. وكانت النار في المدفأة قد تحولت إلى رماد ، وامتلأت الحجرة بهواء تلك الأمسية التي تحفل سماؤها بالسحب ، ذلك الهواء البارد المشبع بالرطوبة .. وكان الجو ساكنا بحيث لم نكن نميز همسات المياه في قناة « جيمرتون » فحسب ، بل كنا نسمع ترقرقها وخريرها فوق الحصى وخلال الأحجار الكبيرة التي

تعترض سبيلها .. فصحت في سخط إذ رأيت الموقد موحشا كئيبا ، وبدأت اغلق النوافذ واحدة بعد الأخرى ، حتى بلغت النافذة التي يجلس بجوارها ، فقلت :

ـ هل يجب ان اغلق هذه ايضا ؟

وكنت ارمي إلى ان انبهه حتى ينهض من مكانه ، لأنه لم يكن يريد ان يتحرك قط .. وعندئذ ومض ضوء الشمعة فوق أساريره ..

اواه يامستر لوكوود ! .. انني لا استطيع ان أعبر لك عن الانتفاضة الفظيعة التي هزت كياني هزا من ذلك المنظر الذي وقعت عليه أنظاري في تلك اللحظة القصيرة !.. هاتان العينان السوداوان العميقتان !.. وهذه الابتسامة !.. وذلك الشحوب الذي يشبه صفرة الموتى !.. انه لم يكن يبدو امامي مستر هيثكليف ، وإنما كان ماردا من الجن !.. وفي غمرة الفزع الذي الم بي ، تركت الشمعة تميل على الجدار فانطفأت وتركتني في الظلام ..

وعندئذ اجاب بصوته المألوف :

ـ نعم .. اغلقيها .. ولكن حسبك هذا التخبط !.. لماذا امسكت بالشمعة في وضع أفقي ؟.. أسرعي ، واحضري غيرها ..

فهرعت خارجة في فزع أحمق ، وقلت لجوزيف :

ـ ان السيد يريد ان تحمل إليه ضوءا وتشعل النار في المدفأة ..

فاننى لم أجد الجراة على الذهاب إلى هناك مرة أخرى وقتئذ ..

وحمل جوزيف بعض الجمر فى المجرفة، ومضى إلى الداخل.. ولكنه عاد بها على الفور ، وفى يده الأخرى صفحة الطعام ، قائلا إن مستر هيثكليف قام ليذهب إلى فراشه ، وانه لا يريد شيئا من الطعام حتى الصباح .. وسمعناه للتو يصعد الدرج ، ولكنه لم يذهب إلى حجرته العادية ، بل تحول نحو تلك الحجرة الأخرى التى تحوى الفراش ذا الخزانة الخشبية .. وكانت نافذتها ، كما أخبرتك من قبل ، عريضة تكفى لمرور أى شخص منها ، فطرأ على فكرى أنه يدبر رحلة أخرى من رحلات منتصف الليل ، لا يريد أن نشك فى أمرها أو نعرفها ..

قلت لنفسى : « أيكون غولا أم من مصاصى الدماء ؟ » .. فقد سبق أن قرأت عن مثل هذه الشياطين الفظيعة المتجسدة ..

ولكنى ما لبثت أن ركزت تفكيرى فى تذكر كيف تعهدته فى طفولته ، وأشرفت عليه وهو ينمو إلى طور الشباب ، وكيف لازمته خلال حياته كلها تقريبا ، فبدا لى من السخف أن أستسلم لمثل هذا الشعور بالفزع !.. ولكن الوساوس والخرافات عادت تهمس لى ، بينما كان النعاس يقود خطاى نحو اللاشعورية : « ولكن من أين أتى ذلك الشىء الأسمر ،الذى آواه رجل طيب ـ ذات يوم ـ فحاق به وبأسرته الدمار ؟.. » وبدأت ، فيما يشبه الحلم ، أكد ذهنى فى تخيل من يصلح لأن

يكون والده ، أو والدته !.. ثم رحت أستعيد تأملات اليقظة ، وأستعرض حياته كلها مرة أخرى ، مع اختلافات قاتمة .. وأخيرا صورت موته وجنازته التى لا أذكر عنها إلا ما انتابنا من الضيق عندما أردنا أن نملى العبارة التى تكتب على قبره ، وكيف استشرت حفار القبور فى ذلك .. لم يكن له اسم ، ولم نكن نعرف عمره ، فاضطررنا إلى أن نقنع بكلمة واحدة هى « هيثكليف » .. وقد صح حلمى فى ذلك ، لأن هذا ما حدث فعلا .. ولو دخلت إلى المقبرة لما قرأت على شاهد قبره إلا هذه الكلمة ، وتاريخ موته ..

وأعاد لى بزوغ الفجر هدوئى واتزانى ، فنهضت وخرجت إلى الحديقة ، بمجرد أن أصبحت الرؤية ممكنة ، لأتحقق مما إذا كانت هناك آثار أقدام تحت نافذته .. ولكنى لم أجد شيئا منها .. فقلت لنفسى : « لقد بقى فى المنزل ، وسوف يكون بخير اليوم » .. وأعددت طعام الافطار لأهل المنزل جميعا ، كعادتى كل يوم ، ولكنى طلبت إلى هيرتون وكاترين أن يتناولا افطارهما قبل أن ينزل السيد ، لأنه تأخر فى النوم .. ففضلا أن يتناولاه فى الحديقة تحت الأشجار ، وزودتهما بمائدة صغيرة حتى يجلسا فى راحة ..

فلما عدت إلى المنزل وجدت مستر هيثكليف فى الطابق السفلى .. كان يتحدث مع جوزيف عن بعض شئون الزراعة ، ويصدر أوامر واضحة دقيقة فى الأمر الذى كانا يبحثانه .. ولكنه كان يتكلم فى عجلة ، ويدير رأسه جانبا باستمرار ، وفى محياه طابع ذلك الانفعال نفسه ، بل لقد

ازداد مغالاة فيه .. فلما غادر جوزيف الحجرة ، اتخذ مجلسه فى المكان الذى يفضله عادة ، وعندئذ وضعت امامه قدحا كبيرا من القهوة .. فأدناه إليه ، ثم مد ذراعيه فوق المائدة ، ونظر إلى الجدار المقابل وهو يتفرس ـ كما حسبت ـ فى قسم معين منه ، إلى الأعلى وإلى الأسفل ، بعينين قلقتين لامعتين ، وفى اهتمام ولهفة بحيث كف عن التنفس اكثر من نصف دقيقة !

فدفعت إلى يده قطعة من الخبز ، قائلة :

ـ هيا .. خذ هذه فكلها ، واشرب قهوتك وهى ساخنة ، فقد انتظرت الافطار ما يقرب من الساعة ..

ولكنه لم ينتبه إلى .. ومع ذلك كان يبتسم باستمرار .. ووددت لو أننى اراه يصر على اسنانه ويكشر عن أنيابه ، فذلك خير من هذه الابتسامة .. وعندئذ صحت :

ـ مستر هيثكليف !.. سيدى !.. بحق السماء لا تحملق بانظارك هكذا كانك ترى مشهدا خارقا للطبيعة ..

فأجاب :

ـ وبحق السماء لا تصرخى هكذا عاليا !.. انظرى حواليك وخبرينى هل نحن وحدنا ؟

ـ طبعا !.. إننا وحدنا طبعا !

ومع ذلك فاننى اطعته بحركة غير إرادية ، كما لو كنت غير واثقة تماما .. وعندئذ أزاح اوانى الإفطار بحركة من يده وافسح بينها مكانا أمامه ، ثم مال إلى الأمام ليمعن النظر فى مزيد من الراحة واليسر ..

وفى تلك اللحظة تبينت أنه لم يكن ينظر إلى الجدار .. لأننى عندما ركزت انتباهى فيه وحده ، كان يبدو تماما كانما يحدق النظر فى شىء يبعد عنه بنحو ياردتين .. ومهما يكن من امر ذلك الشىء ، فانه كان فيما يظهر ، ينقل إليه السرور والالم معا ، باقصى ما فى كليهما من سحر .. أو على الاقل هذا ما كانت توحى به تعبيرات وجهه التى تنبض بالعذاب واللوعة والنشوة معا !.. ولم يكن ذلك الشىء الذى يتخيله ثابتا .. فقد كانت كلتا عينيه تتبعانه فى مثابرة لا تكل ، وكانتا حتى وهو يتحدث إلى ، لا تتحولان عنه ولا تطرفان .. وعبثا كنت اذكره بزهده الطويل عن الطعام .. فكلما استجاب لضراعتى مرة ، وتحرك ليمس شيئا منه ، ومد يده ليتناول قطعة من الخبز ، كانت اصابعه تنقبض وتتقلص قبل ان يصل إليها ، وتظل كذلك ممدودة فوق المائدة ، غافلة عن هدفها ..

وظللت جالسة ، مثالا للصبر والأناة ، أحاول بين وقت وآخر أن أثير انتباهه ، وأنتزعه من تأملاته التى تستغرقه كله ، حتى ضاق بى ذرعا ، ونهض متململا ليسألنى لماذا لا اسمح له بأن يتناول طعامه على مهل ؟.. ثم ليقول لى أن لا حاجة بى إلى الانتظار معه فى المرة القادمة ، بل على أن اعد المائدة وانصرف .. وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى غادر المنزل ، ومضى يسير فى ممر الحديقة متلكئا ، حتى اختفى عن الأنظار وهو يجتاز البوابة ..

ومضت بى الساعات تزحف فى قلق وانشغال ، وحلت ليلة اخرى .. ومكثت ساهرة ، فلم اذهب إلى حجرتى

لانال قسطى من الراحة إلا فى وقت متاخر .. وعندئذ لم يطرق النوم عينى .. اما هو فقد عاد بعد منتصف الليل ، ولكنه بدلا من ان ياوى إلى حجرته ، اوصد على نفسه باب الحجرة السفلى .. فرحت انصت وارهف السمع واتململ فى الفراش ، واخيرا قمت فارتديت ثيابى وهبطت إلى الطابق الأرضى .. فقد كان من المضنى أن اظل راقدة ارهق مخى بعشرات من الشكوك والأوهام .. وتبينت خطوات مستر هيثكليف وهو يذرع الحجرة فى قلق واضطراب ، كانما كان يقيس البلاط .. وكان كثيرا ما يخرق السكون بتنهد عميق اشبه بالأنين .. وكان كذلك يتمتم بكلمات متقطعة لم استطع ان اميز منها إلا اسم كاثرين مقترنا بالفاظ وحشية تنم على الاعزاز والتدليل او الالم .. وكان ينطق بهـا كانما يخاطب شخصا حاضرا امامه ، فى صوت خافت ولهفة مضطرمة ، كانما يعتصرها من اعماق قلبه .. ولم اجد الجراة على اقتحام الحجرة مباشرة ، ولكنى كنت اود أن انتزعه من أحلامه ، فمضيت إلى المطبخ ونفست عن صدرى بتقليب نيران المدفاة وإزالة رمادها .. وقد جذبه ذلك بأسرع مما توقعت ، فقد فتح الباب على الفور ، وقال :

ــ تعالى إلى هنا يا نللى ، واحضرى معك ضوءا !.. هل نحن فى الصباح الآن ؟

ــ انهـا تدق الرابعة .. اتريد شمعة لتصعد بهـا إلى حجرتك ؟.. كان ينبغى أن تشعل واحدة من نار الموقد ..

ــ كلا .. لست أريد أن اصعد إلى حجرتى .. ادخلى ، واشعلى لى نارا ، وافعلى اى شىء هنا فى الحجرة ..

ــ ولكن يجب ان انفخ على الفحم المتقـد أولا قبـل ان استطيع احضار شىء منه إلى هناك ..

ثم حملت مقعدا ، واخذت المنفاخ وجلست امام النار .. اما هو فكان فى هذه الأثناء يهيم على وجهه ذهابا وجيئة وفى حالة تقرب من الذهول .. وكانت تنهداته الثقيلة تتتابع واحدة فى إثر الاخرى بحيث لا تكاد تترك بينها فراغا للتنفس .. وما لبث ان قال :

ــ عندما يطلع النهار سوف ابعث فى طلب جرين .. فانى اريد ان استوضحه بعض الأمور القانونية بينما انا قادر على التفكير فى مثل هذه الأمور ، وبينمـا استطيع التصرف فى هدوء .. اننى لم اكتب وصيتى بعد ، ولم اقرر حتى الآن كيف اترك ثروتى .. وشـد ما وددت لو اننى استطيع محوها من على ظهر الأرض !

فتدخلت قائلة :

ــ اننى ما كنت لاقول ذلك يا مستر هيثكليف .. دع أمر وصيتك فترة اخرى ، فما زال امامك ما يكفى من الوقت للتكفير عن مظالمك الكثيرة !.. وما توقعت البتة ان تنهار اعصابك إلى هذا الحد .. نعم ، فانها الآن قد بلغت غاية الانهيار .. ويكاد يكون ذلك كله راجعا إلى غلطتك ، فان الطريقة التى قضيت بها الأيام الثلاثة الاخيرة خليقة بأن تصرع الجبابرة .. فهلا تناولت بعض الطعام ، ونلت شيئا من الراحة ؟.. يكفيك أن تنظر إلى نفسك فى المرآة لترى مبلغ

حاجتك إلى كليهما .. لقد برزت عظام وجنتيك ، واصبحت عيناك فى لون الدماء ، أشبه بشخص يوشك على الموت جوعا ويوشك على فقد بصره سهدا ..

فأجاب :

ـ انها ليست غلطتى اننى لا استطيع ان آكل او استريح ، وثقى ان ذلك ليس خطة موضوعة أرمى بها إلى هدف معين .. فسوف آكل واستريح عندما اجد ذلك فى قدرتى .. ولكنك كمن يأمر رجلا يصارع الأمواج بأن يرتاح وهو على قيد ذراع من الشاطىء !.. يجب ان ابلغه اولا ، ثم استريح بعدئذ !.. حسنا .. دعينا من مستر جرين الآن !.. اما التكفير عن جورى وعسفى ، فانى لم أقترف جورا او عسفا ، وليس لدى ما أندم عليه او اكفر عنه !.. اننى سعيد غاية السعادة ، ومع ذلك فانى لست سعيدا إلى الحد الذى يكفينى !.. ان هناء روحى هو الذى يقتل جسدى ، ولكنه مع ذلك لا يشبع روحى نفسها !

فصحت به :

ـ سعيد يا سيدى ؟.. ما اغربها من سعادة !.. ولكنك إذا رضيت بأن تستمع لى بغير غضب ، فربما استطعت أن أسدى إليك نصيحة تجعلك أعظم سعادة ..

فسألنى :

ـ ما هى ؟.. هاتيها ..

ـ انك تعلم تماما يا مستر هيثكليف انك منذ ان كنت فى الثالثة عشرة من عمرك ، كنت تعيش حياة ملؤها الأثرة ، مجردة من التقى والتدين ، بل لعلك لم تمسك فى يدك كتابا مقدسا طوال هذه المدة .. ولابد ان تكون قد نسيت ما فيه ، وربما لا تجد الآن فسحة من الوقت لدراسته بنفسك .. فهل يضيرك ان تبعث فى طلب احد رجال الدين ـ من اى مذهب ، فان ذلك ليس بذى بال ـ ليشرح لك اوامره ونواهيه ، ويريك إلى اى حد شردت بعيدا عن احكامه ، وكيف اصبحت بذلك غير خليق بجنة السماء ، ما لم يحدث تغيير فى نفسك قبل ان تموت ؟

ـ ان شكرى لك يا نللى يحجب غضبى منك .. لانك ذكرتنى بالطريقة التى أريد ان أدفن بها !.. اريد ان يحمل جثمانى إلى المقبرة فى المساء ، ويمكن لك ولهيرتون ان تصحبانى إليها ، إذا شئتما !.. وعليك ان تحرصى ، بصفة خاصة ، على إطاعة حفار القبور لتعليماتى بشأن التابوتين !.. وما من حاجة لحضور أحد رجال الدين ، أو الصلاة على قبرى !.. فانى أقول لك اننى أوشكت على بلوغ جنتى .. اما جنة الآخرين فلا اقيم لها وزنا ولا أشتهيها !

فقلت وقد فجعنى كفره وعدم اكتراثه :

ـ وهب انك ثابرت على صومك وعنادك ، مما أدى إلى موتك ، ورفضوا ان يدفنوك فى فناء الكنيسة ؟.. فكيف ترضى عن ذلك ؟

ـ انهم لن يفعلوا ذلك !.. ولو فعلوه ، فيجب ان تتولى نقلى خفية !.. اما إذا اهملت ذلك ، فسوف يثبت لك ، عمليا ، أن الموتى لا يتلاشون نهائيا !

وما كاد يسمع افراد العائلة الاخرين وقد دبت حركتهم فى البيت ، حتى انسحب إلى عرينه .. وعندئذ تنفست الصعداء !.. ولكنه اتى إلى المطبخ ثانية بعد الظهر ، بينما كان جوزيف وهيرتون غائبين فى عملهما ، وطلب منى ، وهو يرمقنى بنظرات وحشية ، ان اذهب لأجلس معه فى حجرة الجلوس .. كان يريد اى شخص معه .. ولكنى ابيت ، وافهمته صراحة ان حديثه ومسلكه الغريبين قد افزعانى ، وانه ليس بى من رغبة ، او اعصاب ، لاكون رفيقته وحدنا ..

فاطلق ضحكته البشعة ، وقال :

ـ احسبك تظنيننى شيطانا .. شيئا فظيعا لا يليق لان يعيش تحت سقف بيت محترم ..

ثم تحول إلى كاترين ، التى كانت معى ، والتى احتمت خلفى عند اقترابه ، واستطرد يقول فيما يشبه التهكم :

ـ هل لك ان تاتى ، يا دجاجتى !.. اننى لن اؤذيك .. كلا ؟.. لقد جعلت نفسى فى نظرك اسوا من الشيطان إذن ! .. حسنا .. ان هناك واحدة لا تنفر من صحبتى .. يا إلهى !.. انها خالية من الرحمة ، لا تلين !.. يا للعنة !.. ان ذلك مما لا يطيقه إنسان من لحم ودم ، حتى انا !

ولم يعد ينشد رفقة احد بعد ذلك ، وعند الغسق اوى إلى حجرته .. وكنا نسمعه اثناء الليلة بطولها ، وحتى الصباح المتاخر ، لا يكف عن الانين او يكلم نفسه .. فاستبد القلق بهيرتون ، واراد ان يدخل عليه حجرته ، ولكنى طلبت إليه ان يذهب لإحضار الطبيب كينيث ، ليدخل إليه ويفحصه .. فلما اتى الطبيب ، رحت اتوسل إليه ان يسمح لنا بالدخول ، وحاولت فتح الباب ، فوجدته موصدا .. وعندئذ انطلق هيثكليف يسبنا ويلعننا ويقول انه احسن حالا ، ويريد ان ندعه وشانه .. وهكذا عاد الطبيب من حيث اتى ..

وكانت الليلة التالية غزيرة المطر .. والواقع انه ظل ينهمر حتى مطلع الفجر .. فلما مضيت اقوم بجولتى حول المنزل كعادتى كل صباح ، وجدت نافذة حجرة السيد مفتوحة ، والهواء يطوح مصاريعها ، والمطر يتدفق إلى الداخل .. فقلت لنفسى انه لا يمكن ان يكون فى فراشه .. فان هذه السيول خليقة بأن تغرقه حتى تبلل عظامه .. ولابد ان يكون قد استيقظ من نومه ، او انه غادر المنزل .. ولكنى لن اثير ضجة او جلبة ، بل سوف اذهب فى جراة لارى الحقيقة بنفسى ..

وافلحت فى الدخول إلى الحجرة بمعونة مفتاح آخر ، ثم اسرعت لأزيح الالواح الخشبية لخزانة الفراش ، لان الحجرة نفسها كانت خالية ، فدفعتها جانبا فى عجلة ولهفة ، واسترقت النظر إلى داخلها ..

كان مستر هيثكليف هناك ، راقدا على ظهره .. والتقت عيناه بعينى فاذا فيهما نظرة ثاقبة ضارية .. فاجفلت .. وعندئذ بدا كأنه يبتسم .. ولم يكن فى وسعى أن أحسبه ميتا ، ولكن المطر كان يغمر وجهه وعنقه ، وكانت أغطية الفراش تقطر ماء ، وكان هو جامدا بلا حراك !.. وكان مصراع النافذة ، والهواء يطوحه هنا وهناك ، قد كشط جلد إحدى يديه ، وكانت مستقرة على إفريز النافذة ، ولكنى لم ار اثرا للدماء حول الجلد الممزق ، فلما لمسته باصابعى ، لم يعد ثمة مجال للشك .. كان ميتا ، متيبسا !

ففتحت مصراعى النافذة وثبتهما ، ورحت أمشط شعره الأسود الطويل إلى الخلف ، لأزيحه عن جبهته .. ثم حاولت أن أغمض عينيه لأطفىء ـ ان استطعت ـ تلك النظرة الثاقبة المخيفة التى تنم عن الرضى والابتهاج ، وكأنها تنبض بالحياة ، قبل ان يراها أحد غيرى .. ولكنها لم تلن تحت اصابعى ، ولم تستجب لى ، بل كانت تبدو كأنما تهزأ بمحاولاتى !.. بل ان شفتيه المنفرجتين ، واسنانه الحادة البيضاء ، كانت كأنما تهزأ بى هى الأخرى .. وعندئذ تملكتنى نوبة اخرى من الخور والجزع ، فصحت أستنجد بجوزيف ..

وصعد جوزيف الدرج فى جلبة وضوضاء ، وهو يجر قدميه جرا .. ولكنه رفض فى اصرار ان يكون له به شأن أو يمد إليه يدا ، وصاح :

ـ لقد خطف الشيطان روحه ، فليتول امر جيفته ايضا !.. فما يعنينى ذلك فى شىء .. اف !.. انه يبدو شريرا حتى فى موته !

وكشر العجوز الآثيم عن تواجده فى سخرية واستهزاء ، وظننته يهم بأن يطوف حول الفراش راقصا ، ولكنه ما لبث أن استعاد سكينته ، وجثا على ركبتيه ، ورفع يديه إلى السماء ، ثم راح يتلو صلوات الشكر لله على استعادة سيد الدار الشرعى حقوقه الضائعة ، وتراثه التليد ..

اما انا فقد روعتنى وشلت حواسى تلك الحادثة الرهيبة .. غير ان ذاكرتى لم تملك إلا أن تعود إلى الأيام الخوالى فى نوع من الحزن الممض .. ولكن هيرتون المسكين ، وكان أكثرنا استهدافا للظلم ، كان الوحيد الذى عانى ألما حقيقيا .. لقد قضى الليل بطوله جالسا إلى جوار الجثة ، يبكى فى جزع مرير .. وكان يضغط على يده ، ويقبل ذلك الوجه الوحشى الساخر الذى كان كل انسان غيره يجفل من مرآه ، ويندبه بذلك الحزن القوى الذى ينبع بطبيعة الحال من قلب كريم ، مهما كان قاسيا كالصلب المطروق ..

وحار الطبيب كينيث فى تقرير سبب موت السيد .. وأخفيت تلك الحقيقة الواقعة وهى انه لبث اربعة أيام لم يذق خلالها شيئا ، خشية أن يقودنا ذلك إلى متاعب لا داعى لها .. ولكنى كنت مقتنعة ان صيامه كان نتيجة لمرضه الغريب ، لا سببا له ..

وقد قمنا بدفنه ، لدهشة أهل الجيرة جميعا واستنكارهم ، حسب مشيئته .. فلم يحضر دفنه سواى ، وسوى هيرتون ، وحفار القبور ، وستة رجال كانوا يحملون النعش .. وقد مضى الرجال الستة لشأنهم بعد أن انزلوا التابوت فى القبر ،

ولكننا بقينا حتى اهيل عليه التراب .. وكانت الدموع تغمر وجه هيرتون عندما راح يخلع جذور العشب ويغرسها فوق قبره – وهى الآن يانعة خضراء كتلك التى تغطى القبرين الآخرين – وشد ما أرجو أن يكون ساكنه ينام نوما عميقا كساكنيهما ..

ولكنك إذا سألت الريفيين فسوف يقسمون على الكتاب المقدس انه يسير على قدميه !.. فهناك من يتحدثون عن لقائهم به بالقرب من الكنيسة ، أو فوق البرارى ، بل حتى فى هذا المنزل !.. سوف تقول انها خرافة سخيفة ، وكذلك أقول انا .. ومع ذلك فان ذلك الشيخ الجالس بجوار المدفأة يؤكد أنه رأى الاثنين معا يتطلعان من نافذة حجرته فى كل ليلة ممطرة منذ وفاته !

ثم اننى وقع لى أمر غريب منذ شهر تقريبا .. كنت ذاهبة إلى « الجرانج » ذات مساء – وكانت أمسية مظلمة تنذر بالرعد والمطر – فما أن بلغت منحنى الطريق القادم من « المرتفعات » حتى قابلت صبيا صغيرا أمامه شاة وحملان .. كان يبكى بكاء مروعا ، فحسبت الحملين يشاكسانه ولا يستجيبان لقيادته .. فسألته :

– ماذا هنالك ايها الرجل الصغير ؟

فغمغم يقول وهو ينفطر باكيا :

– هناك هيثكليف وامرأة معه ، تحت تلك الأكمة .. ولست أجرؤ على المرور بهما ..

ونظرت ، فلم أر شيئا .. ولكن لا هو ، ولا الخراف ، رضى أن يتحرك خطوة واحدة إلى الأمام .. فأمرته بأن يسلك طريقا آخر أسفل ذلك الطريق .. والأرجح أنه كان يتصور وجود الأشباح من كثرة تفكيره فيها ، وهو يقطع البرارى وحده ، من كثرة ذلك الهراء الذى يسمع والديه ورفاقه يرددونه .. ومع ذلك فاننى ، الآن ، لا احب الخروج فى الليل !.. ولا أحب ان اترك وحدى فى هذا المنزل الكئيب !.. ان الأمر ليس بيدى ، ولا حيلة لى فيه !.. وسوف اسعد كثيرا عندما يتركان هذا المنزل ويذهبان للاقامة فى «الجرانج»

فقلت :

– هل ينويان الذهاب إلى الجرانج اذن ؟

فأجابت مسز دين :

– نعم ، بمجرد زواجهما فى أول العام الجديد ..

– ومن الذى سيقيم هنا اذن ؟

– سوف يبقى جوزيف للعناية بالمنزل ، وربما بقى معه احد الغلمان ليكون رفيقا له .. وسوف يعيشان فى المطبخ وتوصد باقى حجرات المنزل ..

فغمغمت قائلا :

– نعم .. ليمرح فيه اى عدد من الأشباح تطيب له الاقامة به !

ولكن نللى هزت رأسها قائلة :

– كلا يامسز لوكوود !.. اننى اعتقد ان الموتى يرقدون

فى سلام !.. ولكن ليس من الصواب ان يتحدث المرء عنهم فى طيش ورعونة !

وفى تلك اللحظة انفتحت بوابة الحديقة فى دفعة قوية .. فقد كان الصاحبان عائدين من جولتهما .. فقلت مزمجرا ، بينما كنت أرقب من خلال النافذة اقترابهما :

ـ ولكن هذين لا يخافان شيئا .. انهما ـ معا ـ خليقان بأن يواجها الشيطان وعصبته جميعا !

وفيما كانا يخطوان إلى سلم الباب ، ثم يتمهلان ليلقيا نظرة اخيرة على القمر الساطع ـ او على الأصح لينظر كل منهما إلى الآخر ـ شعرت بدافع لا يقاوم يستحثنى ثانية على تجنب لقائهما .. فدسست شيئا للذكرى فى يد مسز دين ، وتسللت ـ غير عابىء باحتجاجها على فظاظتى ـ إلى المطبخ بينما كانا يهمان بالدخول من باب حجرة الاستقبال .. ولعل ذلك كان خليقا بأن يؤيد راى جوزيف فى امر مغامرات زميلته مسز دين ، لولا انه لحسن الحظ قد عرف اننى شخص فاضل محترم ، من ذلك الرنين الجميل لقطعة الذهب التى القيتها عند قدميه ..

. . . .

ولقد طال مسيرى نحو منزلى ، بسبب تحولى نحو الطريق إلى الكنيسة .. فلما بلغت مكانها ، ووقفت تحت جدرانها ، تبينت أن الخراب قد تقدم بها شاوا بعيدا فى السبعة الشهور الماضية .. فكم من نافذة كانت تبدو فجوة سوداء

خالية من الزجاج ، وكم من احجار برزت من مواضعها ، والواح انفلتت من اماكنها فى الاسقف ، لتصبح وشيكا فريسة سهلة لعواصف الخريف المقبلة ..

وبحثت ، وسرعان ما عثرت على شواهد القبور الثلاثة القائمة على المنحدر ملاصقة للبرارى .. كان اوسطها داكن اللون يعلو فوقه العشب حتى يوشك ان يغطيه كله .. أما شاهد قبر ادجار لينتون فان الطحالب والحشائش كانت تزحف عند أعتابه .. بينما كان شاهد قبر هيثكليف ما يزال عاريا مجردا ..

تلكأت حولها ، تحت تلك السماء الصافية ، ورحت ارقب الفراشات وهى ترفرف بأجنحتها بين الهيش والحشائش ، واصغى إلى همسات الريح الرقيقة وأنفاسها بين العشب ، واعجب كيف يمكن لأى امرىء ان يتصور نومة قلقة مضطربة لأولئك الذين ينامون فى هذه الأرض الهادئة الساجية ..

((تمت))

ف سلام !.. ولكن ليس من الصواب ان يتحدث المرء عنهم ف طيش ورعونة !

وف تلك اللحظة انفتحت بوابة الحديقة ف دفعة قوية .. فقد كان الصاحبان عائدين من جولتهما .. فقلت مزمجرا ، بينما كنت ارقب من خلال النافذة اقترابهما :

ـ ولكن هذين لا يخافان شيئا .. انهما ـ معا ـ خليقان بأن يواجها الشيطان وعصبته جميعا !

وفيما كانا يخطوان إلى سلم الباب ، ثم يتمهلان ليلقيا نظرة اخيرة على القمر الساطع ـ او على الأصح لينظر كل منهما إلى الآخر ـ شعرت بدافع لا يقاوم يستحثنى ثانية على تجنب لقائهما .. فدسست شيئا للذكرى ف يد مسز دين ، وتسللت ـ غير عابىء باحتجاجها على فظاظتى ـ إلى المطبخ بينما كانا يهمان بالدخول من باب حجرة الاستقبال .. ولعل ذلك كان خليقا بأن يؤيد راى جوزيف ف امر مغامرات زميلته مسز دين ، لولا انه لحسن الحظ قد عرف انى شخص فاضل محترم ، من ذلك الرنين الجميل لقطعة الذهب التى القيتها عند قدميه ..

. . . .

ولقد طال مسيرى نحو منزلى ، بسبب تحولى نحو الطريق إلى الكنيسة .. فلما بلغت مكانها ، ووقفت تحت جدرانها ، تبينت أن الخراب قد تقدم بها شاوا بعيدا ف السبعة الشهور الماضية .. فكم من نافذة كانت تبدو فجوة سوداء

خالية من الزجاج ، وكم من أحجار برزت من مواضعها ، والواح انفلتت من اماكنها ف الأسقف ، لتصبح وشيكا فريسة سهلة لعواصف الخريف المقبلة ..

وبحثت ، وسرعان ما عثرت على شواهد القبور الثلاثة القائمة على المنحدر ملاصقة للبرارى .. كان أوسطها داكن اللون يعلو فوقه العشب حتى يوشك ان يغطيه كله .. أما شاهد قبر ادجار لينتون فان الطحالب والحشائش كانت تزحف عند أعتابه .. بينما كان شاهد قبر هيثكليف ما يزال عاريا مجردا ..

تلكأت حولها ، تحت تلك السماء الصافية ، ورحت أرقب الفراشات وهى ترفرف بأجنحتها بين الهيش والحشائش ، واصغى إلى همسات الريح الرقيقة وأنفاسها بين العشب ، واعجب كيف يمكن لأى امرىء ان يتصور نومة قلقة مضطربة لأولئك الذين ينامون ف هذه الأرض الهادئة الساجية ..

((تمت))